

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سياحة خاصة

مع الحيوان في القرآن

سباحة خاصة مع الحيوان في القراء

يمان ياسرجي

عنوان الكتاب : سياحة خاصة مع الحيوان في القرآن

الموضوع : بحث فكري وتأملات

تأليف : يمان ياسرجي

قياس الصفحة : A5

الطبعة الأولى : ٢٠١٥

يطلب من المؤلفة :هاتف أرضي ٥٧٤٦٤٦٢

هاتف جوال ٠٩٣٣٥٤٣١٣٨ - ٠٩٦٨٥١٤٨٢٠

Yaman1962@hotmail.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

الإهداء

من أجل أن نتقن فن الحياة..
نتوسّع.. نمتدُّ.. ننقّب.. ونخلّق..
بجثًا عن كل أفق.. وغوصًا في كل عمق..
من أجل أن نعلم ونعرف ونفهم..
نختار البوصلة أولاً..
ومن هدي القرآن العظيم.. أستلهم بوصلةً من نوعٍ خاصٍ، أشار
إليها الخالق الباري عزّ وجلّ - أنهم أممٌ أمثالنا - أممٌ تشاركنا
العيش فوق كوكب الأرض..
فإلى سياحةٍ من نوعٍ خاصٍ جدًّا..
أدعوكم..
وأزعم أنها ممتعة.. ومشوقة.. ومفيدة.

يمان

من البعوضة.. إلى الفيل.. وما بينهما

لماذا ذُكرت ؟؟؟؟

لا أدري كيف بدأ الحديث.. ولكنني وجدتني أُعدد أسماء حيواناتٍ وحشراتٍ ذكرت في القرآن الكريم.. وحانت مني التفاتة إلى كثرتها وتنوعها، فاستقصيتها جميعاً، لأجد كمًا هائلاً من الأسرار واللفتات..

لقد أكد الله تعالى في محكم كتابه أنه ما من دابةٍ في الأرض ولا طائرٍ يطير بجناحيه إلا أممٌ أمثالنا.. واستعمال حرف الجر في الأرض بدلاً من **على**، يتيح لمخلوقاتٍ عديدة أن تدخل في حيز هذا التأكيد.. "على" تناسب الدابة التي تدبّ على الأرض بأرجلها، بينما تشمل "في" الحشرات، وكل ما يمكن أن يعيش ويتحرك ضمن الغلاف الجوي المحيط بالأرض أو في أعماق

التربة، إضافة إلى الكائنات البحرية التي تسبح في أعماق الماء دون أن يلاصق جسدها صخرًا أو قاعًا.

هذه الأمم.. أمثالنا.. تشاركنا العيش فوق هذا الكوكب، أمم لها أنظمتها وقوانينها.. أعرافٌ تناسب كينونتها، وأساليب تلائم خصائص تكوينها، وقد ذكرها البيان الإلهي في سياق بعض القصص القرآني حينًا، أو ضرب بها الأمثال أحيانًا أخرى -لافتًا النظر إليها ودافعًا إلى البحث فيها- فهل ترانا نجد في دراستها المتعمقة المتأنية، عبرةً نستخلصها، وحكمةً نسترشد بها؟ هل نتعلم لديها من الدروس ما يغني معارفنا ويثري علومنا ويجمل حياتنا؟ هل نواجه أسرارًا كانت ولا تزال تنتظر فهمًا تجريبيًا يفكّ ألغازها؟! أسئلة من هذا القبيل تدعونا إلى التفكير والتأمل والمحاولة.

وإلى القرآن نعود، لنجد أن الحيوانات على اختلاف أنواعها قد ذكرت في القرآن في أكثر من نصف عدد السور كلها، أي أنها قد ذكرت في ٥٨ سورة من أصل ١١٤ سورة، كما نجد أن أسماء بعض الحيوانات قد وردت كأسماء لعدة سورٍ هي، البقرة،

الأنعام، النحل، النمل، العنكبوت، الفيل، وتحمل سورة العاديات اسم وصف الخيل حال الحرب، ولقد وردت تسمية سورتي النحل والنمل بالجمع إشارة إلى الحياة الجماعية المنظمة لهاتين الحشرتين، بينما جاءت تسمية العنكبوت بصيغة المفرد إشارة إلى بشاعة الحياة الفردية لهذه الدويبة.

لقد ذُكرت أسماء بعض الحيوانات صريحةً ومباشرةً في كثيرٍ من مواضع وآيات القرآن.. منها ما اقترن بذكر بعض الأنبياء عليهم السلام بسببٍ من خصوصية أساسية، مثل ناقةٍ أرسلها الله إلى قوم النبي صالح، أو حوتٍ التقم النبي يونس، أو ذئبٍ نُسب إليه أكل النبي يوسف، ومنها ما تضمنته بعض الآيات من خلال إشارةٍ واضحةٍ إلى نوعه، مثل الكباش الذي أنزله الله ليكون ذبحًا عظيمًا، فداءً للنبي اسماعيل بعد أن امتثل هو وأبوه النبي ابراهيم أمر الله تعالى، فاستسلما له طاعة مطلقةً، ومحبة خالصةً، ويقينًا صادقًا، وصبرًا حقيقيًا، تقول الآية ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصفات: ١٠٧]،.. ومنها ما مرَّ عَرَضًا، مثل حوت موسى

وفتاه الذي اتخذ سبيله في البحر سرّياً، بل عجباً، ليكون نقطة الانطلاق والإشارة المعنية في رحلة العلم اللدني.

ولعلها لفظة هامة جدّاً، لا أبالغ إن وصفتها باللفظة القاسية أن يعن البيان الإلهي في تشبيه بعض أصناف الناس ببعض الحيوانات، فقد شبّه القرآن وصف الذين حملوا التوراة دون العمل بها، بوصف الحمار يحمل العلم، وشبّه الذي آتاه آياته فعافها وأخلد إلى الجهل والعناد، بوصف الكلب اللاهث على كل حال، كما شبّه الذين اتخذوا من دون الله أولياء لهم، بالعنكبوت ضلّت عيشها وأمانها، وكما شبّه الناس الذين يملكون السمع والبصر والفؤاد قد عطلّوا حواسهم فلم تهديهم سبل الرشاد بالأنعام، بل أضل سبيلاً.

أنا بذلك أدعوكم إلى رحلة طويلة معي.. إلى قصةٍ طويلةٍ.. طويلةٍ.. يتمازج أبطالها الحقيقيون - من بشر وحيوان - وتشابك أدوارهم الأبدية السرمدية لترسم خطوطَ روايةٍ مداها الدهر بأكمله، من لدن آدم أبي البشر إلى يوم القيامة..

رواية.. يختلط فيها المشهد المرئي بالخبر الغيبي، والفكرة العلمية
بالمثل الواضح.. فيها يتنوع الخطاب، وتتعدد الأساليب، وتتلون
الإيجاءات، وتتقافز الصور الحسية لتبين طبع كل مخلوق وتفرد
النوعي.. في سياقٍ قرآنيِّ بلاغيٍّ معجزٍ.
ذلك غيض من فيض.. والصفحات قادمة ملامى بألوانٍ من
المعارف العلمية، واللفتات الوجدانية، والإشراقات اللغوية..
وأزعم أن السياحة لدي شائقة.. فلنبداً.

تنويه لابد منه

في تطوافي الساحر الجميل بين روائع الكتب، استلهامًا للمعرفة، وجمعًا للمعلومة، وفي أثناء البحث والتقصي أبحرت على متن المراجع والمصادر المتنوعة، بدأت باستقصاء كل آيات الحيوان من "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم" ل: محمد فؤاد عبد الباقي مع الاعتماد على بحثي الفردي الخاص أثناء التلاوة، كما استعنت بمعجم "العين" للفراهيدي لتوضيح بعض معاني الكلمات، وقد وجدت بغيتي في تفسير وشرح الآيات من كتب التفاسير الوافرة وعديدة المنهج للقرآن الكريم مثل - ابن كثير - القرطبي - صفوة التفاسير - تفسير الشعراوي - الطبري - وغيرهم، مما توفر لدي في الموسوعة الشاملة، أما المادة العلمية فقد حصلت على أغلبها من كتاب "الحيوان في القرآن الكريم" للدكتور زغلول النجار، أو من دراسات مختلفة للدكتور محمد راتب النابلسي، نشر بعضها في كتابه "الإعجاز العلمي في الآيات والأحاديث"، أو من أبحاث منشورة في

صفحات ومواقع علمية على الانترنت، كما أغنيت البحث بخلاصات الفكر والتفكر لدى باحثين ومفكرين أغنوا المكتبة العربية بأبحاثهم وإبداعاتهم المختلفة مثل كتاب "من أنباء القرى" للدكتور أحمد الكبيسي/إعداد النشر والمداخلات للأستاذة فاطمة شنون، وكتاب "النبوة والأنبياء" ل: محمد علي الصابوني، كذلك كتاب "قصص الحيوان في القرآن" ل: أحمد بهجت، وكتاب "هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان" ل: عبد الله سراج الدين، أما كتاب "تفسير الأحلام" لابن سيرين فقد رفدني ببعض تأويلات الأحلام المتعلقة بحيواناتٍ رآها عزيز مصر أو صاحب النبي يوسف في المنام، وفيه من الطرافة ما فيه.

وكالنحلة .. تطير بين الحقول، تحطّ فوق كائنات بدیعة من صنع الله، تجمع رقائق الزهور والورود، ثم تصنع عسلاً شهياً، وعملاً بقوله صلى الله عليه وسلم "الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها"، امتصصت أنا الرحيق وصنعت العسل.

ألفاظٌ وتعابير من بيئة الحيوان

استخدم البيان القرآني في أثناء عرضه لكثير من القضايا الحياتية أو الشرعية ألفاظاً وتعابير يتداخل معناها بصورة أو بمعنى من بيئة الحيوان، لتأخذ بدورها معنى جديداً، شرعياً أو اصطلاحياً، وفي تضاعيف صفحات القرآن نجدها تأخذ أمكنتها مؤكدة التداخل بين حيوات عالمي الإنسان والحيوان.

﴿حبطت أعمالهم﴾

تقول إحدى هذه الآيات ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧]، والحبوط، حبوط الدابة، إصابتها بمرض الحُباط، وهو انتفاخ بطنها من مرعى سيءٍ أقبلت عليه، مما قد يؤدي بحياتها، وحبطت أعمال الكافرين أي أُبطلت وزالت وكأنها لم تكن، تماماً مثل أن يظنّ أن انتفاخ بطن الدابة سمنةً ونموً في شحمها ولحمها، فإذا به مرضٌ قاتل.

﴿كمثل الذي ينعق﴾

مثلاً لا يذكر فيه اسم الحيوان صراحة، ولكنه استعارة مباشرة لحالة أو لنشاط بشري يشترك فيهما الحيوان مع الإنسان، تقول الآية ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بكم عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، ونعق الراعي بغنمه أي صاح بها وزجرها، وهي إذ تسمع صوته المألوف لديها والمعتادة عليه، تستجيب لصياحه، فتغادر حظائرها أو تدخلها، وتقف في مرعاها فترة أو تسير بأمره.. والبهائم تسمع الناعق بها، فتطيع دون أن تعقل، تسيّر غرائزها الفطرية في الاستجابة لمن يقوم بإشباعها لها، والراعي يسعده امتثال مواشيه لأصواته المبهمة، التي تبدو بمثابة الدعاء والنداء لكائنات خلق الله لها أسمعاً وأبصاراً تناسب كينونتها البهيمية، فيأتي الردّ على قدرها من أجل ورود ماءٍ أو غشيان مرعى أو ارتداد إلى مأوى، المهم أن الناعق هذا، يجد نتائج صياحه ويلمس آثار نعقه بغنمه، ومن هنا تزداد صورة الازدراء والسخرية جلاءً وإيلاًماً، حيث شبه الله الذين كفروا بالذي ينعق ويصيح

بما لا يسمع.. ينطق ويصيح بالجمادات.. بأصنامٍ وأوثانٍ من حجرٍ أو خشبٍ أو فخارٍ أو غير ذلك، هل تراه يجد مجيئاً وقد فقد السامع؟؟!! كيف به يدعو من لا يملك سمعاً أو لساناً أو بصرًا، بل كيف به يعبد جمادًا لا يعقل ولا يدرك، لقد انحطوا بعقيدتهم وإيمانهم والتجائهم إلى ما هو أقل شأنًا وأزرى حالاً حتى من الحيوان، الذي يسمع ويستجيب ويرى، وفقًا لفطرة فطره الله عليها، إن الصمم - الذي هو أسبق من الخرس - يشترك مع الخرس ومع العمى في كونهم ثلاثتهم من أسباب عدم العقل عند الجماد، وهي صفاتٌ ألحقها الله أكثر من مرة بأولئك الكفرة الذين عطلوا حواسهم، التي جعلها الله لهم أدوات الإدراك والفهم والتبصر والعقل.

﴿ ما لها من فواق ﴾

صورة خاطفة من صور استخدام وتوظيف البيان الإلهي لتعابير عالم الحيوان، صورة يوم الصيحة الواحدة، التي إذا جاءت، لا تستأخر ولو لفترةٍ قصيرةٍ جدًّا، تقدّر بفواق الناقه، أي المسافة بين حلبتين، تقول الآية ﴿وَمَا يَنْظُرُ هُوَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا

لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿ص: ١٥﴾، وصيحة قريبة إلى هذا الحد تستدعينا للوقوف حيال حقيقتها وقربها واستعجالها، فنسارع إلى العمل الصالح المخلص الدائم.

﴿عَجَّلْ لَنَا قِطْنَا﴾

في الآية استخدام لفظة القط التي تحتمل أكثر من معنى، أحدها: الهرّ الذي هو حيوانٌ من جنس الفصيلة السنورية ورتبة اللواحم، وثانيها: النصيب والجزاء، وثالثها: كتاب المحاسبة، تقول الآية ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، حيث أن المستكبرين من أمة محمد، وقد أمهلهم الله رحمة بهم، فلم يأخذهم بالهلاك والدمار كما أخذ من قبل أقوام الأنبياء قوم نوحٍ وعادٍ وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة، إلا أنهم لاستكبارهم استعجلوا جزاءهم ونصيبتهم، وطلبوا أن يوفيههم حظّهم قبل يوم الحساب، اليوم الذي أنظرهم إليه.

﴿الْهَدْيُ نُسُكٌ﴾

ومن ذلك استخدام لفظة الهدى، ولفظة نُسُك، والمراد بكلا اللفظتين، شاةٌ أو بقرةٌ أو ناقة، يسوقها الحاجُّ أو المعتمر إلى البيت الحرام، لينحرها يوم النحر ويطعمها للفقراء، يتحلل بها من إحرامه، أو تكون له فدية أو كفارة عن التقصير في بعض مناسك الحج، تقول الآية ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

﴿ضامر﴾

كذلك لفظة "ضامر" وهي الدابة القليلة اللحم الرقيقة، إذ يسافر الناس إلى الحج، راجلين أو راكبين على رواحلهم، والراحلة الضامرة أسرع مشياً من البدينة وأكثر مرونة في التحرك والمناورة،

تقول الآية ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

﴿كل إنسان أزمانه طائر﴾

لفظة "طائر" إذا ما أضيفت إلى الإنسان أصبحت تعني عمله الذي اكتسبه أو طار عنه، من خيرٍ أو شرٍّ، فهو منه، والدليل عليه، والقريب الملتصق به، كما العنق بالنسبة للإنسان، تقول الآية ﴿وَكُلٌّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]، وإذ يقال تطير فلان، أي تشاءم، وإن كان الأصل هو التفاؤل بالطير، لكن غلب استعماله في التشاؤم، والطيرة اسم من التطير، وقد كان أسلوب العرب ومذهبهم في الجاهلية التطير بالسوانح والبوارح من الطير و الطباء والوحش، وكان الواحد منهم إذا همّ بأمرٍ لجأ إلى طائرٍ فزجره، أي أشار إليه مطاردًا، فما مرّ من يمين الرائي إلى يساره، دعي البارح، وكانوا يتشاءمون به، وهو ضد السانح، الذي يمرّ من يسار الرائي إلى يمينه، وكانوا يتفاءلون به، تقول الآية ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ

أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ [النمل: ٤٧]، وفي الآية زجرٌ لأولئك الذين تشاءموا بنبي الله صالح وبمن معه من المؤمنين أن يصيبهم الخير على أيديهم، فكان الرد أن طائرهم عند الله، أي أن حظهم ومستقبلهم ومصيرهم عند الله وبيده، ذلك أن الله قد سنّ لهذا الكون سننه وقوانينه وبيّن للناس المنهج والطريق المستقيم، فمن اتبع الهدى وسار على الصراط، وجد خيراً لا يلجئه إلى زجر الطير ليعرفه، ومن انحرف عن سبيل الله وحاد عن السواء أدركه الشر ولو لم يتشاءم ويتطيّر، وعلى هذا يصير المعنى المرتبط بمقولة "طائر الله لا طائر ك" أو "فأل الله لا فألك" أنه دعوة أن ينفذ حكم الله وأمره لا ما تتخوّفه وتخشاها وتحذره.

﴿المرسلات عرفاً﴾

ومن ذلك أيضاً استعارة التصوير القرآني صورة عرف الفرس باسترساله وتتابعه، واستخدامه في قسمٍ يفتح به سورة المرسلات، ليخبر المشركين المتشككين بوقوع يوم القيامة وليؤكد لهم أن وعد الآخرة واقع لا محالة، ذلك أن الاعتقاد باليوم الآخر هو حجر الأساس في العقيدة السماوية، ترتبط بوجود هذا

الاعتقاد وسلامته قيمٌ وسلوكيات وقناعاتٌ تمسّ كل جوانب الحياة، تقول الآيات ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ (١) **فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا** (٢) **وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا** (٣) **فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا** (٤) **فَالْمَلْقِيَاتِ ذِكْرًا** (٥) ﴿[المرسلات]،

وهنا نجد اختلاف العلماء في تفسير حقيقة مدلول المرسلات، حيث قال بعضهم هي "الملائكة إطلاقاً" ليصير معنى القسم بالملائكة المرسلة إرسالاً متواليًا كأنها عرف الفرس في إرسالها وتتابعها.

قال البعض الآخر بأنها "الرياح إطلاقاً" وبالتالي يكون القسم بالرياح المرسلة متوالية كعرف الفرس في امتدادها وتتابعها، ليعتبر آخرون أن المرسلات والعاصفات والناشرات رياحٌ، وأن الفارقات والملقيات ملائكة.

وعلى أي حالٍ فإن صيغة القسم توحى بأن ما يقسم الله به هو من مجاهل الغيب وقواه المؤثرة في حياة الناس، وهما كلاهما يؤثران بتتابعٍ، وتوالٍ، واسترسالٍ، لعل الأثر يكون أديم وأبقى وأشدّ فاعلية وأكثر نفعًا.

﴿كأنه جمالات صفر﴾

نجد في نهاية سورة المرسلات أن البيان الإلهي يذكر مآل هؤلاء المتشككين المكذبين ونهايتهم، بانطلاقهم في يوم الفصل الأخير إلى ظلٍ هو دخان نار جهنم، ظلٍ لا يدفع شيئاً من حرّ النار التي تمتد ألسنتها الضخمة، فيتطاير شررها متفرقاً إلى ثلاث شعبٍ كذوائب هائلة مترقصة، كلّ شرارة كالبناء المشيّد في العِظم والارتفاع، هو ظلٌّ خانقٌ حارٌّ لافحٌ، للهبٍ يتراقص ويتتابع شرره وكأنه إبل سودٌ أو صفر في الكثرة والتتابع وسرعة الحركة واللون، ترتع هنا وهناك، ليؤكد في نهاية كل مجموعة من آيات هذه السورة، أن الويل للمكذبين، فتقول الآيات ﴿انطلقوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤)﴾ [المرسلات].

﴿حتى يلج الجمل﴾

وتتنوع صور الحديث عن المكذبين المستكبرين، الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها، وعن مآلاتهم، لعلهم يتعظون،

ويرعون، ويؤمنون، فيربط القرآن في صورة حسية بليغة بالغة الأثر، بين استحالة أن تفتح لهؤلاء أبواب السماء وأن يدخلوا الجنة كاستحالة أن يمرّ جملٌ ضخّمٌ في ثقب إبرة، وتحتل لفظة "الجمل" هنا مكانها بمعنيها، الأول "الكبير من الإبل" والثاني "الجبل الغليظ" تقول الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف: ٤٠).

﴿فشاربون شرب الهيم﴾

من ذلك أيضًا وصف نُزِّل الضالين المكذبين في الآخرة، نُزِّل يناسب ما كانوا عليه من استكبارٍ عن قبول الحق، وانحرافٍ عن جادة الصواب والهدى، فما يُقدّم إليهم في هذا النزول، من الطعام، إلا شجر الزقوم يملؤون منه بطونهم بشراهة ونهم، ومن الشراب، إلا الحميم المغلي يُسقونه مع الأكل، يقبلون عليه إقبال الإبل العطاش الهيم التي لا تروى بما تشرب، والمعروف عن الإبل عظيم صبرها عن ورود الماء، وطول تحملها للعطش، تقول

الآيات ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَا كِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ (٥٢) فَمَا لَوْوُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ (٥٥) هَذَا نُزِّلَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦)﴾ [الواقعة].

﴿فيه تسمون﴾

آيةٌ تذكر الماء الذي لا ينزله من السماء غير الله، حيث يتغلغل المطر في طبقات الأرض فتتكوّن الينابيع العذبة والأنهار وتغدو المناهل التي تروي عطش الإنسان والكائنات الحية جميعها دون استثناء، كما تروي النبات على كثرة أنواعه، ليصير الغذاء للجميع أيضاً، لهذا الماء اسم الوَسْمِيُّ إذا كان أول مطر السنة، يَسِمُ الأرض بالنبات فيصير فيها أثراً من المطر في أول السنة، وأرضٌ موسومة هي أرضٌ أصابها الوسمي ثم يتبعه الوَيْئُ في آخر الشتاء ثم يتبعه الرَّبْعِيُّ، ويخص القرآن ذكر الشجر الذي تقتات عليه السوام وهي النّعم السائمة، وعلى الأكثر تقال للإبل خاصة، والسائمة تسوم الكلاً إذا داومت على رَعِيه، والرعاة يسومونها أي يرعونها، والمُسيّمُ الراعي، تقول الآية ﴿هُوَ الَّذِي

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ [النحل: ١٠].

﴿إلى جهنم وردا﴾

يوم القيامة.. يوم يُحْشَرُ الْمُتَّقُونَ إلى مولاهم على هيئة وفود معززة مكرمة، ليكونوا بتقواهم ضيوفاً للرحمن، ولينالوا الحظوة والمكانة، أما المجرمين الذين ارتكبوا بحق أنفسهم وبحق الآخرين آثاماً وظلماً وقبائح، فهم يساقون كما تساق الدواب العطشى إلى موارد الماء، وقد بلغ بها العطش كل مبلغ، إلا أن هؤلاء يساقون إلى جهنم، مهانون قد أمضهم ذل إجرامهم وهوان معاصيهم، تقول الآيات ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا (٨٦)﴾ [مريم].

﴿...وانحر﴾

في سورة الكوثر، يخبر الله تعالى النبي محمد صلى الله عليه وسلم بأنه قد أعطاه نهرًا في الجنة عليه خير كثير اسمه الكوثر، ثم طلب منه أن تكون صلواته لله، دون غيره من الأنداد والآلهة، وأن يكون نحر ذبائح مناسك العبادة لله أيضًا دون الأوثان، ولهذا

كان الرسول يصلي العيد ثم ينحر نسكه، شكرًا له على ما أعطاه من الكرامة والخير، تقول الآيات ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢)﴾ [الكوثر].

﴿.. أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾

المرعى، مكان رعي الماشية، والله وحده الذي ينبت العشب رطبًا غضًا، تأكل منه الدواب دون جهدٍ يبذله الإنسان في زراعته، سبحانه، خلق كل مخلوقاته على أحسن ما تكون هيئاتهم، كلُّ بما يناسبه، وهدى كلُّ ما يناسبه، فهداية البشر في نهج حياتهم لإعمار الكون، وهداية الحيوانات في غرائزهم للتسخير لنفع الإنسان، تقول الآيات ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥)﴾ [الأعلى].

﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾

يسط البيان القرآني ذكر النعم ويعدددها، ويفصل فيها أحيانًا كثيرة، ليلفت النظر إلى عظيم فضله ومنتته، وليزيد من استشعار المؤمن لما حباه الله منها، وفي الآيات التالية يفصل في ذكر أنواع

النبات مما يأكله الناس، وما تأكله البهائم والدواب، والأبّ هنا الحشيش والكلأ الذي تأكله الحيوانات، تقول الآيات ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) ﴾ [عبس].

البعوضة

﴿بعوضة فما فوقها﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦].

البعوضة.. أول الكائنات الحية التي يرد ذكرها في ترتيب المصحف الشريف في سورة البقرة ثاني سور القرآن الكريم.. وبها أبدأ.. كما بدأ القرآن بها، معلناً أن الله لا يستحيي أن يضرب - مثلاً ما - بعوضةً فما فوقها، والبعوضة الأنثى - إشارة إلى خطرها - دون الذكر تتفرد وحدها بمهاجمة الإنسان وإلحاق الضرر به.. ولقد أدّت الأمراض التي تنقلها إلى هلاك الملايين من البشر منذ بدء الخليقة وإلى يومنا هذا، فهي بذلك من أخطر الآفات الحشرية المعروفة والتي تقف البشرية بكل تقدمها العلمي

والتقني عاجزة أمام أخطارها، وكلمة "وما فوقها" تعيينٌ يشمل المعنيين المتضادين معًا.. أي ما يفوقها ضالَّةً في الحجم حتى لا يُرى بالعين المجردة، وما يفوقها ضخامةً في البنيان.. ذلك أن الفوقية في اللغة تعني الزيادة والعلو في صفة يوضحها السياق. كانت البعوضة معروفة في زمن التنزيل.. ولكن أحدًا لم يكن يعرف من الكائنات الحية ما هو أصغر منها أو أدقّ، ذلك أن مشاهدة هذه الكائنات الدقيقة تحتاج إلى جهازٍ متطور لرؤيتها هو المجهر، الذي تمّ صنعه في القرن السابع عشر الميلادي.. وقد اكتُشفت من خلاله كائنات دقيقة جدًا ذات خلية واحدة، لها نواة محددة، سميت بالطلائعيات ثم اكتُشف وجود البكتيريا والفيروسات والطحالب الخضراء المزرقّة وهي من وحيدات الخلية ولكن ليس لخليتها نواة محددة.. أما أضخم حيوان على الإطلاق فهو ساكن المحيطات العميقة، الحوت الأزرق العملاق الذي يتراوح طوله بين ٢٠م و٣٣م، كما يتراوح وزنه بين ٩٠طن و١٨٠طن.. وإليه سنعود في محطة قادمة عند الحديث عن البحر وأحيائه.

إن مثل البعوضة ليس أول الأمثال ضربًا في القرآن حسب التنزيل فقد ورد غيرها الكثير في الآيات المكية وما سبقها من الآيات المدنية، ولكن الذين كفروا كانوا ينفذون إلى التشكيك في صدق الوحي من خلال نفي واستنكار أن يكون في كلام الله وأمثله ذكرٌ لمثل هذه الحيوانات الضئيلة.. كالذباب، والعنكبوت، ولكن الله عزّ وجل أكد أنه يضرب الأمثال كما يشاء وبما شاء، مستخدمًا إياها كأدواتٍ واقعيةٍ للفت النظر إلى ما يريد، والمؤمنون يفهمون ويوقنون أنها الحق من ربهم، يدفعهم إيمانهم بذلك الحق إلى ربوع العلم والمعرفة من خلال تقصي الحقائق في عوالم تلك الكائنات الصغيرة ومن استدامة البحث والتنقيب في مجالات التقارب والتشابه طلبًا لمزيد من الفهم واستلهامًا للمثل المضروب استجابةً لله.. أما الذين كفروا فيتغابون، ويتغافلون، ويتجاهلون، ويستنكرون، ويراوغون "ماذا أراد الله بهذا مثلا" ليأتيهم الرد القاطع متضمنًا التهديد والتحذير أن في الأمثال التي يضربها الله للناس أسباب هداية لمن شرّع نوافذ قلبه لاستقبال

الهدى والحكمة، وأسباب ضلالٍ لمن اختار العمى والغفلة
والفسوق.

العجل

﴿ثم اتخذتم العجل﴾

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ
وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ
بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ
وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ
الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ
إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)﴾ [البقرة].

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

العجل.. لماذا؟؟؟؟

كانت ولا تزال البقرة أكثر الأنعام تأثيراً في حياة الإنسان، تحرث الأرض، وتحمل الأمتعة، وتدرّ اللبن الغزير، وتطعم قدرًا كبيرًا من الناس، وهي تشغل مساحة ضخمة جدًا في تاريخ التطور العقائدي للبشر، بل لعبت دورًا خطيرًا في علاقة الإنسان بربه، وتلعب ذات الدور إلى اليوم، فمما لاشك فيه أن أشهر معبود عبد بعد الله في الأرض في تاريخ البشرية.. هو البقرة.. وتعتبر أول وأقدم إله أشرك بالله في الأرض، أما اليوم فإن إحصاءات ودراسات تتناول عقائد الناس على كوكب الأرض تجعل البقرة

ثاني معبود في الأرض بعد الله تعالى - تقول الدراسة : إن أتباع الديانات السماوية الذين يفترض أنهم يعبدون الله وهم "المسلمون واليهود والنصارى " يمثلون أغلب سكان الأرض الآن، يليهم تعدادًا البوذيين، والديانة البوذية تقوم على تناسخ الأرواح وتكرار الحياة من دون إله يعبد.. يلي ذلك من حيث التعداد "الهندوس" الذين يتخذون من البقرة رمزًا للإله.. وعلاقة البقرة بعقيدة الهندوس ترجع إلى خمسة آلاف عام أي إلى عهد ابراهيم عليه السلام تقريبًا وهم يزعمون أن عقيدتهم ترجع إلى عهد آدم، وأن البشر بعد ذلك انحرفوا وتركوا عبادة البقرة وعبدوا آلهة وهمية !!.

والهندوس ليس لديهم رسل وإنما عقيدتهم تكونت بتراكم آراء فلاسفتهم، اسمهم "فيدارز"، وكتابهم المقدس يسمى "بهاجوات جيتا"، وهم يعتبرون أن البقرة هي رسول من الإله إليهم، وتقوم عقيدتهم على وجود عدد من الآلهة وزوجاتهم وبناتهم وأولادهم، وأكبر ثلاثة آلهة هم "براهما" إله الخلق، يليه "بيشنو" وهو الإله الحفيظ، و"شيفا" إله الدمار.. أما موضع البقرة في تلك العقيدة

أن الإله براهما حينما خلق الإنسان أنزل له البقرة، ونزل معها ليريه كيف يجلبها ويركبها ويذبحها، فهو قد أنزلها من السماء لتهب الحياة للإنسان ويسمونها "كلياترو" وتعني رفيق الإله! وهنا نجد التشابه بين نزول الأنعام من السماء في القرآن ونزول البقرة برفقة الإله براهما عند الهندوس من السماء لتهب الحياة للإنسان، كما نجد التشابه بين اسم سيدنا ابراهيم عليه السلام وبين اسم الإله براهما، ولعل قصة ابراهيم أو بعض صحفه قد وصلت إلى الهند ثم تم تحريف اسمه الى براهما ومن ثم تأليهه وربط قصة البقرة المنزلة به، وهو ما يرجح من تاريخ ظهور تلك العقيدة الذي هو عصر ابراهيم عليه السلام..

لقد حظيت وتحظى البقرة في الهند بأسمى مكانة، وهي من المعبودات الهندية التي لم تضعف قداستها على كر السنين وتوالي القرون، ففي "الويدا" الكتاب المقدس عند الهندوس حديث عن قدسيته، والصلاة لها، وفي الأدب المنسوب للمهاتما غاندي تفسير لما حظيت به البقرة قديماً وحديثاً من قداسة ونفوذ ديني.

وفيما يلي أعرض لكم بعضاً من رأي المهاتما غاندي، وهو
بعنوان "أمي البقرة"!

(أمي البقرة أفضل من أمي الحقيقية من عدة وجوه، فالأم الحقيقية ترضعنا مدة عام أو عامين وتتطلب منا خدمات طول العمر نظير هذا، ولكن أمنا البقرة تمنحنا اللبن دائماً، ولا تتطلب منا شيئاً مقابل ذلك سوى الطعام العادي، وعندما تمرض الأم الحقيقية تكلفنا نفقاتٍ باهظة، أما أمنا البقرة فلا نخسر لها شيئاً ذا بال، وعندما تموت الأم الحقيقية تتكلف جنازتها مبالغ طائلة، وعندما تموت أمنا البقرة فإنها تعود علينا بالنعيم كما كانت تفعل وهي حية، ذلك أننا ننتفع بكل جزء من جسمها حتى العظم والجلد والقرون.. أنا لا أقول هذا لأقلل من قيمة الأم، ولكن لأبين السبب الذي دعاني لعبادة البقرة، إن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال وأنا أعد نفسي واحداً من هؤلاء الملايين).

كذلك كان العجل - عند المصريين - رمزاً للخصوبة والقوة
الجسمانية.. وكان - عند الكنعانيين - هو الحيوان الذي يمتطيه

الإله "بعل أو هدد" إله العاصفة والخصوبة والنمو.. ولقد رأى بنو إسرائيل عبَادَ أوْتَانٍ في طريقهم بعد النجاة مع موسى، فطلبوا منه - بجهالةٍ وسخفٍ وصلافةٍ - أن يجعل لهم إلهًا كما لهؤلاء آلهة.. وبالفعل.. فقد اتخذ بنو إسرائيل العجل بعد ما جاءتهم البيّنات.. الآيات الواضحات.. شواهد الحق الدالة على وحدانية خالقهم ورازقهم، وناصرهم على عدوهم فرعون، ومنجّيهم من طغيانه وتجبره عليهم، وهم الذين آمنوا بالله مع موسى.. لكنهم سقطوا عند أول امتحانٍ..

كان السامري رجلاً من قومٍ يعبدون البقر، وكان حب عبادة البقر في نفسه، أظهر الإسلام مع بني اسرائيل، إلى أن واتته الفرصة المناسبة لإغوائهم، وذلك لما قصد موسى إلى ربه وخلف هارون في قومهما نصح هارون قومه بأنهم قد حملوا أوزارًا من زينةٍ وحليّ نساء آل فرعون، وأن عليهم أن يتطهروا منها لأنها نجس، وأوقد لهم ناراً ليقذفوا ما كان معكم فيها فجعلوا يأتون بما كان معهم من تلك الأمتعة والحلي فيقذفون به فيها.. عندها صاغ السامري منها عجلاً جعل له منافذ إذا دارت فيها الريح

أخرجت صوتًا كصوت الخوار، أما هم فما كادوا يرون عجلًا من ذهب يخور حتى نسوا ربهم الذي أنقذهم من ذل واستعباد فرعون لهم، كما نسوا عهدهم لئبيهم بعبادة الله وحده فعبدوا العجل وارتدّوا وظلموا أنفسهم بالشرك فاستوجبوا العذاب، عندها اختار موسى بأمر الله تعالى منهم سبعين رجلاً من خيارهم ممن لم يتورطوا في جريمة عبادة العجل، وذهب بهم إلى جبل الطور ليعتذروا إلى ربهم سبحانه وتعالى من عبادة إخوانهم العجل، فلما وصلوا قالوا لموسى : اطلب من ربك أن يُسمعنا كلامه، فأسمعهم قوله : إني أنا الله لا إله إلا أنا أخرجتكم من أرض مصر بيدٍ شديدة فاعبدوني ولا تعبدوا غيري.. ولما أعلمهم موسى بأن الله تعالى جعل توبتهم بقتلهم أنفسهم، قالوا: لن نؤمن لك أي لن نتابعك على قولك فيما ذكرت من توبتنا بقتل بعضنا بعضًا حتى نرى الله جهرًا، وكان هذا منهم ذنبًا عظيمًا لتكذيبهم رسولهم فغضب الله عليهم فأنزل عليهم صاعقة فأهلكتهم فماتوا واحدًا واحدًا وهم ينظرون ثم أحياهم تعالى بعد يوم وليلة، ليشكروه بعبادته وحده دون سواه.. إذا فقد جعل الله

توبتهم من ردتهم أن يقتل من لم يعبد العجل من عبده، فقتلوا منهم سبعين ألفاً فكان ذلك توبتهم فتاب الله عليهم إنه هو التواب الرحيم.

﴿عجلاً جسداً﴾

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلِيهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرْاً وَلَا نَفْعاً (٨٩)﴾ [طه].

جسد الشيء.. هو شكله وهيئته بأبعاده الثلاثة، ولعل لفظة "عجلاً جسداً" ترمز إلى تجسيد إله معبود في هيئة ما، ولقد رأينا كيف طالب قوم موسى نبيهم بعد مرورهم بقوم يعبدون أصناماً، أن يجعل لهم إلهاً كما لهؤلاء، وكيف استغل السامريّ رغبتهم تلك ليصنع لهم من الحلي جسداً صنماً على شكل العجل.. وأنا أرى أن "اتخاذ العجل" هو رمزٌ لكل وثنٍ يتخذه الإنسان،

ولو كان مؤمناً بوحداية الله.. وثنٍ على أية هيئةٍ كان.. مادية أو معنوية.. يتفوق فكره حوله، ويمنحه ما لا يملك من فعلٍ وقدراتٍ، ويضفي عليه ما تشتهيهِ نفسه من قداسة زائفةٍ - تحقيقاً لمصالح دنيوية - مع اليقين التام أنه لا يكلم أحداً ولا يرجع قولاً ولا يردّ جواباً.. بل لا ينفَع ولا يضرّ ولا يهدي ولا يرشد.. وبالتفاته صغيرة إلى ما حولنا في هذا العصر، الأكثر حداثةً وتطوراً مما نتصوّر.. نجد أن أكثرنا يتخذ - دون وعيٍ.. ورغم الإيمان بالله - أوثاناً من أنواعٍ شتى، ليدور في فلکها في غفلةٍ تامةٍ أو جهلٍ مطبق، الأمر الذي يستدعي الغضب من الرب، والذلة والمهانة والصغار أمام هذه الأوثان..

وفيما يلي أذكر إحدى الترانيم التي رُتلت في الاحتفالات التي أقيمت في عام (٧٠٦ ق. م) بمناسبة تدشين خرسباد التي بناها سركون الثاني الآشوري، تقول في أحد سطورها (عسى أن يكون هيكل الثور المنحوت ملاكها الحارس، واقفاً إلى الأبد، عساه أن يبقى مشرفاً ورقيباً، وعسى أن لا تتحرك أقدامه عن العتبة التي يقف عليها).

﴿جاء بعجل حنيد﴾ .. ﴿بعجل سمين﴾

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ
فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ﴾ [هود: ٦٩].

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا
عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاعَ إِلَى
أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ
(٢٧)﴾ [الذاريات].

لقد ذكرنا قبل قليل أن علاقة البقرة بعقيدة الهندوس ترجع
حسب زعمهم إلى خمسة آلاف عام أي إلى عهد ابراهيم عليه
السلام تقريبًا.. وربما أكثر.. ولعل النبي إبراهيم عليه السلام قد
قصد أن يجعل قري ضيفه ذبيح عجل، وتقديمه لهم حنيذًا أي
مشويًا، ليكسر في أذهان الناس تلك القداسة التي أضفاها عبّاد
البقر عليها، من عدم المساس بها، وتركها لا ينال منها أحد
بسوء.. ولعل في ذلك أيضًا إشارة أخرى إلى أن تكون الضيافة
من أحسن ما عند صاحب البيت من طعام.. ونعود إلى لفظة

"ضيف" لفهم أن الضيف هو المسافر الذي يأتيك من مكان بعيدٍ يقصدك، ومن حقه أن تضيفه إليك حتى يقضي حاجته، أما الزائر فهو الذي يأتيك من نفس مدينتك وهو يزورُ عنك أي يغادرك سريعاً، وهذا لا تتكلف له لكثرة وقوع الزيارة.. وفي الآيات السابقة آداب وقواعد للضيافة حريٌّ بنا أن نتدبرها لننتهجها، منها أن ردّ التحية بتبسّطٍ وبشاشة وإقبال، وعدم تأخير القرى، وأن يطلب من أهل البيت إعداده دون إحراج الضيف، وأن يُقرّب الطعام ويؤتى به إليه في مجلسه مع الدعوة بلطفٍ لتناوله، إلى غير ذلك من آداب ندب إليها القرآن المبين الذي لم يترك شأنًا من شؤون الإنسان إلا وألمح إلى الهدى الأصلح والأنسب والأكمل فيه.

المن والسلوى

﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَوَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ [طه: ٨٠].

يذكر الله تعالى في كتابه المنزل الأخير، القرآن الكريم.. بني إسرائيل بنعمه التي خصّهم بها دون العالمين في زمانهم.. يعدد آلاءه عليهم، وفي مقدمتها نجاحهم من آل فرعون الطاغية الذي ساءهم ألوانًا من العذاب الأليم، ثم عفوه عنهم في كثير من

مواقف العصيان والمخالفة والجرأة على الله.. ثم إسباغهم النعم عليهم وهم في الطريق إلى بيت المقدس مروراً في الصحراء.. لقد ساق لهم الله الغمام ليمنحهم ظلاً يتقون به هجير الحرّ، كما أنزل عليهم المن والسلوى ليؤمن لهم طعامهم المتكامل..

السلوى، الطائر المعروف باسم السمامي وهو من طيور الصيد والقنص، لم يتم استئناسها بعد، وهي من الطيور المهاجرة التي تتحرك في مواسم محددة من السنة عبر مساحات كبيرة من الأرض، وقد سخر الله هجرة أسراب منها للمرور على قوم موسى ليأكلوا من لحمه الذي يعتبر من أطيب لحوم الطير على الإطلاق.. أما **المن**، فهو اسم يطلق على مسميين أحدهما حشرة، والآخر مادة صمغية حلوة المذاق ترجع حلاوتها لاحتوائها على نسبٍ عالية من سكر العنب الجلوكوز، وسكر الفواكه الفركتوز، وسكر المن المانوز، وإلى عدد من الكربوهيدرات الأخرى، مما له قيمة غذائية كبيرة، تتكون نتيجة لعملية نَزِّ عصارات النبات الغذائية إلى سطوحه الخارجية ثم جفافها بتبخّر جزء كبير من محتواها المائي، يحدث هذا النَزُّ عندما تقوم

حشرات المن المزودة بأربعة فكوك، بعملية الثقب والاختراق، بواسطة إبرٍ ثاقبةٍ دقيقةٍ في فكيها العلويين، ثم ترسل الإبر الماصة الدقيقة من فكيها السفليين عبر الثقوب المتكونة.. وبعد امتصاص العصارة الغذائية للنبات، تستهلك جزءًا منه في توليد الطاقة اللازمة لنشاطها وبناء خلايا جسدها، ثم تفرز ما يزيد عن حاجتها على هيئة تلك المادة البيضاء اللزجة حلوة المذاق، مما قد يتسبب في أضرار بالغة للنباتات الصغيرة حيث تسترخي أوراقها وتتجدد، تصفرّ ثم تسودّ وتبدأ بالتساقط إلى أن تدبل النبتة وتموت.. وقد يؤدي تقاطر هذه العصارة الغذائية من النبات على الأرض إلى خصوبة التربة، أو أن تكون بدورها مادة غذائية لحشراتٍ أخرى كالذباب.

إن الجمع بين المن والسلوى في غذاء واحد هو جمعٌ متكامل بين سكريات ممتلئة في المن وبين بروتينات حيوانية ممتلئة في السلوى، وكلاهما لازمٌ لإنتاج الطاقة وبناء خلايا جسم الإنسان.

القرد.. الخنزير

﴿كونوا قردة﴾

﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

﴿قُلْ هَلْ أَنْبَيْتُمْ بِشَرِّ مَنْ دَلِكْ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

ينتشر ذكر القردة والخنزير في مواضع متفرقة عدة حسب ما يقتضيه الذكر أو التنويه..

القرد حيوان حاد المزاج، يتسم بالأنانية الشديدة وبالخيانة والغدر، والميل إلى الاستغلال، وحبّ التملق وعدم الوفاء..

والخنزير حيوان جشع كسول رَمَام، يأكل النبات والحيوان والقمامة والجيف، كما يأكل فضلاته وفضلات غيره، وهذا من أهم أسباب نقله للعديد من الأمراض الخطيرة للإنسان.. وهما كلاهما.. قد ذُكِرَا في كتاب الله في معرض ذكر عقوبة المسخ إلى هَيْئَتَهُمَا، من خلال أمرٍ تقشعر له الأبدان "كونوا قردة" امتهانًا، وإذلالًا، وعقابًا من الله للعصاة الفاسقين من بني إسرائيل.

﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ.. وَالدَّمَ.. وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥].

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ

فَسَقَا أَهْلًا لِعَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿[الأنعام: ١٤٥].

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلِيَ لِعَيْرِ
اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ
السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا
بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا
تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي
مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)
يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَمَا عَلَّمْتُمْ
مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا
أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤)﴾ [المائدة].

إذا قضى الحيوان - أي مات حتف أنفه - احتبس الدم في
عروقه وتعفن وفسد وحصل من أكله مضارٌ عظيمة.

ولقد حرّم الله الميتة.. وما يتفرع تحتها من أنواع، من منحنقة تموت خنقاً، وموقوذة تموت ضرباً بعصا أو حجر، ومتردية تموت وقد تردّت من سطح أو في بئر، ونطيحة تموت بنطح بهيمة لها، وفريسة افترسها كل ما له ناب ومخلب، ذلك أنها جميعاً قد ماتت وما سال دمها، فكانت كالميت حنف أنفه.. أما الحكمة من تحريم الميتة فهي أن الحيوان لا يموت غالباً إلا وقد أصيب بمرض أو علّة، والأمراض تصيب الحيوان كما تصيب الإنسان وهي كثيرة مختلفة، تترك في لحم الحيوان أجزاء منها، ودم الحيوان إذا توقفت دورته غلبت فيه الأجزاء الضارة على الأجزاء النافعة، فإذا أكل الإنسان لحم الحيوان الميت انتقلت إلى دمه جراثيم الأمراض، ولذلك شرعت الذكاة، وهي تدارك الحيوان قبل موته وذبحه مع ذكر اسم الله، وإراقة الدم الذي فيه تجعل لحمه نقياً مما يخشى منه من أضرار.

أما الدم.. فهو الطاهر ما دام يجري في العروق، فإذا صار مسفوحاً صار البيئة الخصبة الملائمة لنمو أنواع الميكروبات وتكاثرها، والوسط المناسب لعيش الجراثيم، لأنه السائل الحامل

للمنتجات السامة في الخلايا، ووجود الدم في جسم الحيوان الميت يساعد على نمو الميكروبات فيه ويسرّع من فساد لحمه، كما أن تناول الإنسان لكمية منه عن طريق ما، يؤدي لتكوين مركبات نشادرية تؤثر على المخ وعلى ما فيه من مراكز عصبية، مؤدية لإحداث تغيرات قد تُوصل أحياناً إلى الغيبوبة وفقدان الوعي.

أما بالنسبة لـ **لحم الخنزير**.. وبما أن أهل العلم قد أخبروا أن الغذاء يصير جزءاً من جوهر المغتذي، فلا بدّ أن يحصل لمتناوله أخلاقٌ وصفاتٌ من جنس ما كان حاصلاً في الغذاء، والخنزير يعيش على القاذورات والجيف، وله رغبة شديدة في أخط المشتهيات، ولهذا فقد حُرّم أكله على الإنسان كيلا يتكيف بتلك الكيفية الشائنة، على عكس الشاة، فإنها حيوانٌ في غاية السلامة، وهي ذاتٌ عاريةٌ عن جميع الأخلاق، فلذلك لا يحصل للإنسان بسبب أكل لحمها تغيير في أحواله أو طباعه.

وأما أضرار أكل لحم الخنزير على جسم الإنسان، فقد أثبت الطب الحديث الكثير منها نجمله فيما يلي.. أن لحمه من أكثر

أنواع اللحوم الحيوانية التي تحتوي مادة الكوليسترول الدهنية، والتي تؤدي إلى زيادة فرص الإصابة بتصلب الشرايين، حيث أن تركيب الأحماض الدهنية فيها تركيب شاذٌ غريبٌ يجعل امتصاصها أسهل بكثير من غيرها في الأغذية الأخرى وبالتالي زيادة كوليسترول الدم، وأن لحمه ودهنه يساهمان في انتشار سرطان القولون والمستقيم والبروستاتا والثدي والدم ويسببان الإصابة بالسمنة وأمراضها، الحكة والحساسية وقرحة المعدة، الإصابة بالتهابات الرئة الميكروبية الناتجة عن الدودة الشريطية (تينياسوليم / ٢-٣ متر) ودودة الرئة، ويؤدي نمو بويضات هذه الدودة في جسم الإنسان فيما بعد إلى الإصابة بالجنون والهستيريا في حال نمو هذه البويضات في منطقة الدماغ، وإذا ما نمت في منطقة القلب فإنها تؤدي إلى ارتفاع ضغط الدم وحدوث نوبات قلبية، ومن أنواع الديدان الأخرى التي تتواجد في لحم الخنزير دودة التريكانيلا الشعرية الحلزونية المقاومة للطبخ والتي قد يؤدي نموها في الجسم إلى الإصابة بالشلل والطفح الجلدي، كما تسبب هذه الديدان الضعف ونقص فيتامين (ب١٢) الذي

يسبب نوعاً خاصاً من فقر الدم، وقد يسبب حدوث أعراض عصبية مثل التهاب الأعصاب، وعندما تصل اليرقات إلى الدماغ تسبب حدوث ارتفاع الضغط داخل الدماغ، وما يتلوه من صداع واحتلاج، وعندما تصل هذه الطفيليات إلى الأمعاء الدقيقة تخرج يرقات كثيرة بعد ٤ إلى ٥ أيام لتدخل إلى جدار الأمعاء وتصل إلى الدم ومنه إلى معظم أنسجة الجسم، والعضلات، وتشكل كيسات هناك تجعل المريض يعاني من آلام عضلية شديدة، وقد يتطور المرض إلى حدوث التهاب السحايا، والدماغ، والتهاب عضلة القلب والرئة، والكليتين، والأعصاب، وقد يكون المرض مميتاً في حالات قليلة.

هذه بعض أضرار أكل لحم الخنزير، ولعلنا بعد ذلك لا نستريب في تحريمه، على أننا لو لم نعلم في أكله مضره ولا أذى، فهذا لا يغير من إيماننا بتحريمه شيئاً، ولا يضعف من تركنا له.

وبالنسبة إلى ما أهلَّ لغير الله به - والإهلال رفع الصوت عند البدء بأمرٍ ما - فقد كان المشركون يقولون عند الذبح : باسم اللات والعزى، ولقد أثبت العلم الحديث من خلال تجارب

علمية قامت بها مخابر بفحص عيناتٍ من لحومٍ ذُكر اسم الله عليها أثناء ذبحها ولحومٍ لم يُكَبَّرَ عليها، أن التكبير وذكر اسم الله على الذبيحة يؤدِّي إلى تقلُّصٍ أعظم واسترخاءٍ أدنى في جسدها مما يحدث اعتصارًا للخلايا للتخلص من أكبر كميةٍ ممكنةٍ من دمائها.

وأخيرًا.. نذكر أن الله أحلَّ الطيبات.. كل الطيبات.. مضافًا إليها ما أمسكته الجوارح، كالصقر والبازي وكلاب الصيد المعلمة على كيفية تكبيل الفريسة واصطيادها، محتفظة بها دون أن تأكلها أو تأكل منها، مع ارتباط ذكر اسم الله عند إطلاق الطير الجارح أو كلب الصيد ليكون الصيد حلالاً.

﴿حرمنا كل ذي ظفر﴾

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْغِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

قوله عز وجل "وعلى الذين هادوا" يعني اليهود، قد حرم الله عليهم "كل ذي ظفر" أي كل ذي مخلب من الطير وكل ذي حافر من الدواب، وقد سمي الحافر والمخلب ظفرًا على الاستعارة، كما حرم من البقر والغنم شحومهما، يعني شحوم الجوف، وهي الثروب، وشحم الكليتين، إلآ.. ويستثني من الشحم ما حملت ظهورهما، أي ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما، وما حملته الحوايا وهي المباعر، واحدها حاوية وحوية، وما اختلط بعظم، يعني شحم الألية.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول عام الفتح وهو بمكة "إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام" فقييل : يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنه يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس ؟ فقال : لا هو حرام. ثم قال رسول الله عند ذلك : "قاتل الله اليهود إن الله - عز وجل - لما حرم شحومهما، جملوه، ثم باعوه، فأكلوا ثمنه".

البقرة

﴿أن تذبحوا بقرة﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبِحُوا بَقْرَةً قَالُوا
أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧)
قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا
فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨)
قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونَهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ
صَفْرَاءُ فَاقْعِ لُونَهَا تَسْرُ النَّاطِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ
لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ
وَلَا تَسْقِي الْحَرثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ
بِالْحَقِّ فَذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا
فَادَّارْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا

اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ﴿البقرة: ٧٣﴾.

منذ عهد إبراهيم عليه السلام، وربما قبل ذلك، عبد الناس البقرة أو العجل أو غير ذلك من رموزٍ اخترعوها أو أسماءٍ ابتدعوها، استكباراً عن أمر الله في عبادته وحده دون غيره، ولأن القرآن العظيم دعوة بيّنة إلى التوحيد المطلق وإلى نبذ كل الاعتقادات المنحرفة الضالة، نجده يعمل على تقويض ما فسد وضلّ من قناعات البشر على مر العصور والدهور، لا يترك لذلك سبيلاً إلا باشره وأفضى إليه، ولا يدع وسيلة تقرب منه إلا فرضها وأمر بها.. من ذلك ردّ البقرة إلى حدود مكانتها كحيوانٍ قابلٍ للذبح وللانتفاع به، صارفاً نظر الناس عن تقديسها وتأليهها.. وقصة بقرة بني إسرائيل.. قصة قرآنية مشوقة يذكر البيان الإلهي أطرافاً محدّدة منها، لتوظّف في سياقاتٍ عديدة، منها تقويض أساس عبادة البقر، وذكر طبائع وخصائص قوم موسى عليه السلام، وإظهار طلاقة قدرة الله، يسردها المفسرون كقصةٍ كاملة الأحداث، وهي أن رجلاً ثرياً من بني إسرائيل لم يكن له ولد

يرثه.. وكان له أقارب كل منهم يريد أن يستأثر بأمواله الطائلة، فكان أن تأمر عليه ابن أخيه فقتله ليرثه ويستولي على أمواله.. ولكنه أراد أن يبعد التهمة عن نفسه فحمل الجثة وألقاها على باب قرية مجاورة ليلصق بأهلها تهمة القتل.. وفي الصباح قام أهل القرية ووجدوا جثة الرجل أمام قريتهم، فتجمع أهل القتل واتهموهم بقتله..

دراً كل من أهل القريتين شبهة الجريمة عن نفسه، وقام باتهام الطرف الآخر.. ولم يكن هناك دليل دامغ يرشد إلى الفاعل بل كانت الأدلة ضائعة، لذلك استحال توجيه اتهام لشخص دون آخر، واحتدم الخلاف بين بني إسرائيل، وكادت أن تحدث فتنة كبيرة.. لولا لجوئهم إلى موسى عليه السلام ليطلب من الله أن يكشف لهم لغز هذه الجريمة ويدلهم على القاتل.. وهنا تفضح الآيات الكريمة طبيعة قوم موسى عليه السلام الذين أحبوا الجدل والمماحكة، ليماطلوا في تنفيذ أمرٍ مباشرٍ من أوامر الله البيّنة الواضحة.. "أن تذبحوا بقرة".. أية بقرة.. ويفضح القرآن أولئك الذين لا يستحيون، الذين يتركون البيان الواضح في

تكبير كلمة "بقرة" لينخرطوا في أسئلةٍ سخيفةٍ تزيد الأمر تعقيداً عليهم، وإرباكاً لهم، وتضييقاً على المتاحات أمامهم.. يسألون ما هي ؟ ويأتي الجواب ﴿لا فارضٌ ولا بكرٌ.. عوانٌ بين ذلك﴾ ويسألون.. ما لوئها؟.. "صفراءُ فاقعٌ لونها".. ولم تكفي هذه التحديدات والتفصيلات لمعرفتها، فهم لم يهتدوا إلى كامل مواصفاتها بعد.. لهذا، يكررون ويعيدون السؤال التافه من جديد.. ما هي ؟.. ﴿لا ذلولٌ تشير الأرض.. ولا تسقي الحرث.. مسلمة.. لاشية فيها".. تفصيلات كثيرة وتحديدات دقيقة، ألزموا أنفسهم بصعوبة الحصول عليها.. وفيما يلي نطوف بسرٍ سريعٍ على جوانب من هذه التفاصيل.. فالبقرة : الأنتى من هذا الحيوان المعروف، وقد يقع على الذكر وإنما سميت بقرة لأنها تبقر الأرض، أي تشقها للحرث، أما الفارض : المسنّ التي انقطعت ولادتها من الكبر، ويقال لكل ما قَدُمَ وطال أمدُه : فارض، وكأنّ المسن سميت فارضاً لأنها فرضت سنّها، أي قطعتها وبلغت آخره، البكر : الصغيرة التي لم تلد من الصغر، وقال ابن قتيبة : التي ولدت ولداً واحداً، أما العوان : النصف،

وهي التي ولدت بطناً أو بطنين، لا ذلولٌ : غير مسخرة للعمل،
صعبة الانقياد، مسلمة : أي مرأة من العيوب، لا شية فيها : لا
لون فيها غير الأصفر.

وأخيراً.. يهتدون إليها مع الصعوبة البالغة والكلفة الباهظة..
أخيراً، وصلوا إلى البقرة التي كان قد استودعها الرجل الصالح عند
الله حتى يكبر ابنه فاشتروها بماء جلدتها ذهباً، وكان ذلك جزاء
تنطعهم ومماحكهم، ثم قاموا بذبحها، وضربوا قتلهم ببعضها،
وقد اختلّف في البعض الذي ضرب به القتل.. لسانها، فخذها
اليمنى، ذنبها، ولا شك أن القرآن لم يدل عليه، فوجب
السكوت عنه، و لما ضربه قام حيّاً وقال : قتلني فلان ثم سقط
ميتاً، وفي نهاية هذه القصة.. يذكر القرآن أحد أهم أسرار الموت
والحياة.. ﴿كذلك يحيي الله الموتى﴾.. ولكن كيف ؟ من
خلال ضرب جثة القتل ببعض البقرة المذبوحة.. أي (ضرب
ميتٍ بميت لا حياة فيه)؟؟؟؟..

لئلا يلتبس على ذي شبهة أن الحياة إنما انقلبت إليه من حيّ
ضرب به.. (كذلك).. ويبقى الأمر سرّاً يحتفظ الله بتفاصيله

وحقيقته في علم الغيب عنده، لكن ظاهر الكلام يدل على أن الله تعالى أعلم بني إسرائيل أن إحياء الله تعالى لسائر الموتى يكون مثل هذا الإحياء الذي شاهده، لقد أحيا الله تعالى لبني إسرائيل القتيل عياناً، ثم قال لهم: "كذلك يُحْيِي اللهُ الموتى" أي كالذي أحياه في الدنيا، يحييه في الآخرة، من غير احتياج في ذلك الإيجاد إلى مادة ومدة ومثال وآلة.

﴿إني أرى سبع بقرات﴾

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦].

كان الحلم في منام الملك غريباً، أقلقه وأثار شكوكه، فراح يبحث عن تأويله عند الكهنة والعرافين في زمانه، ولكنهم عجزوا عن تعبير الرؤيا، حتى فسرهما لهم نبي الله يوسف وفق ما علمه الله من

تأويل الأحاديث، ومن كتب تفسير الأحلام لابن سيرين نستقرئ ما تدلّ عليه رؤية البقر في المنام، وبالمجمل فالبقر في المنام تدلّ على السنين، فالبقرة السوداء أو الصفراء سنة فيها سرور وخصب، والغرة في البقر شدة في أول السنة، والبلقة في جنبها شدة في وسط السنة، والبلقة في إعجازها شدة في آخر السنة، والبقر السمان سنوات ذات خصب، والبقر الهزيلة سنوات ذات قحط وجدب.. وأكل لحم البقر في المنام إفادة مال حلال في السنة.. وقيل : البقرة رفعة ومال، وقرونها سنون خصبة، ومن اشترى بقرة سمينة أصاب ولاية بلدة عامرة إن كان أهلاً لذلك، ومن أصاب بقرة أصاب ضيعة من رجل جليل، وإن كان عزباً تزوج امرأة مباركة، ومن رأى كأنه ركب بقرة وأدخلت داره وربطها نال ثروة وسروراً وخلاصاً من الهموم، وإن رآها نطحته بقرتها دل على خسران.. والبقرة الحامل سنة مرجوة للخصب، ومن رأى أنه يحلب بقرة ويشرب لبنها استغنى إن كان فقيراً، وعزّ وارتفع شأنه، وإن كان غنياً ازداد غناه وعزّه

وقالت عائشة : رأيت كأني على تل وحوالي بقر تنحر، فقال لها مسروق : إن صدقت رؤياك كانت حولك ملحمة، فكان كذلك، أما رؤيا الملك في الآيات فقد أولها نبي الله يوسف الصديق بأن البلاد ستمر بسبع سنين مباركة الخير والغلال والمحاصيل، وسيتلوها سبع من القحط والجفاف، تبتلع كل ما أذخر وفاض من خيرات سنوات السبع السابقة.

الدابة

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بغيرِ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

آيات و شواهد.. لا ينبغي لنا أن نقف معها عند حدود مجرد الإيمان.. بل أن نتجاوز ذلك إلى إعمال العقل والبحث والمعرفة طلبًا للمزيد من اليقين.. بل للارتقاء من علم اليقين إلى عين اليقين.. من تلك الآيات، خلق السموات والأرض التي تستدعي النظر في الأكوان.. اختلاف الليل والنهار وتناوبهما وتداخلهما، حيث يبدأ أحدهما في نهاية الآخر، يقتسمان ساعات اليوم

الأربع وعشرين بنظامٍ دقيقٍ على مدى أيام العام يومًا بيوم، فيطول ليل الشتاء ويقصر نهاره، بينما يقصر ليل الصيف ويطول نهاره.. السفن والفلك، تمخر عباب البحر فيحملها الماء مثقلَةً بأوزان المسافرين وأمتعتهم، والتجار وبضائعهم.. ماء المطر الذي ينزل من السماء فوق أرضٍ فقدت بجفافها وتصحرها أسباب الحياة، فيحييها من جديد، ويث في أرجائها كل حيٍّ، غير متحرك كالنبات، ومتحركٍ يتضمّن كل نوعٍ يدبّ على الأرض أو يطير في السماء، لا يحصي لهم عددًا غير الله.

﴿وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾

﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥)﴾ [الجاثية].

مجموعة من الآيات هي آيات للمؤمنين، وآيات لقوم يوقنون، وآيات لقوم يعقلون، مجموعة تشدّ الناس إليها لترقى بهم عبر

مستوياتها الثلاث من الأعمّ إلى الأخصّ فالأخصّ، بل من الإيمان إلى الإيقان إلى العقل، في الأولى تذكر السموات والأرض بشكل عام لتوصل المرء إلى مستوى الإيمان، وفي الثانية تلفت النظر إلى خلق البشر تشريحيًا وسلوكيًا على اختلاف ألوانهم وألسنتهم، وإلى خلق بلايين البلايين من أنواع الدوابّ، بشكل تفصيليٍّ أكثر، لتوصل إلى مستوى الإيقان واليقين، أما الآية الثالثة فتذكر من التفاصيل والجزئيات التي تتداخل في حياة الناس أكثر فأكثر، كتعاقب الليل والنهار، وما ينتج عنه من خصوصيات معاشية، وكإنزال الخيرات والأرزاق، متمثلة بماء السماء، يحيي موات الأرض، وكتحريك الهواء بتياراته وجبهاته وحمولاته وما ينتج عنه من فروقاتٍ تميّز المكان والأحداث..

إذا.. لعموميات الكون مؤمن وحسب، ثم يأخذ العلم القلب إلى ساحاتٍ يقينٍ تامٍ بعظمة وحكمة وعزّة وجلال الخالق، بعد ذلك تطرق دقائق الأشياء وأسرارها وبديع صنعها وفرادة تكوينها باب العقل أنا بعد آن.

﴿... مِنْ دَابَّةٍ﴾

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ
وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩].

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ
وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩].

بعض من آياته.. جلّ وعلا.. خلق السموات والأرض، وما بثّ
فيهما من دابة.. وتستوقفنا لفظة "فيهما" أي في السموات، وفي
الأرض، وبثّ الدابة في الأرض أمرٌ معلوم، فالدابة تطلق في اللغة
على كل ما له ديببٌ من إنسانٍ وجانٍ وحيوانٍ وطيرٍ وغملٍ ونحلٍ
وهوام (الهامة طائرٌ في أساطير العرب يخرج من هامة القتيل ويظلّ
يقول اسقوني اسقوني حتى يؤخذ بثأره، أو هي طائرٌ ليليّ صغيرٌ
يألف المقابر)، أما بثّ الدابة في السموات فمخلوقاتٍ ليست
من جنس دواب الأرض، بل لها تكوينها المختلف ونشأتها
المتناسبة مع مكان سكنها في السماء، ولا يلزم أن تكون مرئية
لبنّي آدم ذلك أن الجن من سكان الأرض كما نعلم ولا يراهم
جميع الناس، ولقد أفرد القرآن ذكر الملائكة في الآية ٤٩ من

سورة النحل، مميّزًا إياهم عن جنس الدابة في السموات، وقد ذكروا على وجه العطف، والعطف يقتضي المغايرة، والملائكة أجسامٌ نوارنيةٌ لطيفةٌ ما لها من ديب، بينما للجنان ديبهم الخاص لأنهم خلقوا من مارجٍ من نار، والمارج لهبٌ مختلطٌ بسواد النار له نوعٌ من الكثافة.

وتذكر جميع المخلوقات والعوالم لغاية توضيح أنها جميعها تسجد لله تعالى، ولكن سجود كل نوعٍ على حسب هيئته وصورة خلقه، فليس سجود الأشياء كسجود الأحياء، وليس سجود الحيوان كسجود البشر، يتميّز سجود الإنسان بسجوده على سبعة أعضاء، هي الوجه والكفين والركبتين وأصابع القدمين، والله وحده يعلم كيفية سجود بقية مخلوقاته.

﴿...وَالدَّوَابُّ...﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

ألم تر؟؟!!.. استفهام يطلقه القرآن لغايةٍ ما.. فهل يمكن أن نرى - والرؤية تكون بالأعين والأبصار - أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس و.. و.. فهل يمكن أن نرى الساجد؟ ومن يُسجد له؟ وكيفية السجود حسب نوع الساجد؟! هل يمكننا أن نرى كيفية سجود الشمس أو القمر أو النجوم أو الجبال أو الدواب على وفرة أنواعها؟؟ أم أن الأمر إدراكٌ عقليٌّ بحت؟ أو دعوة إلى رؤية بصيرة؟

﴿..إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

﴿وَكَايِنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

الرزق على الله وحده.. وما من أحدٍ قادرٍ على ادعاء هذا الأمر أو إرجاعه لقدرته أو نسبه إليه، و"إلا" تُفيد حصر هذه القدرة بالخالق الرزاق وحده، الخالق الذي يعلم ما خلق، وما ينفع مخلوقاته، وما يصلح لها من طعام، وما يناسبها من مآكل

ومشارب، وما يكفيها منه وما يزيد عن حاجتها، وما يلدّها وما يستهويها منه، و "وما من دابة" استغراقاً لكل حي يتحرك، من كائناتٍ لاحمةٍ وعشبيةٍ ودمويةٍ، إلى غير ذلك من أنواع الغذاء الذي تتغذى الأحياء عليه، وتضيف الآية الأولى إلى القدرة على رزق كل دابة العلم بكل حركة وسكنة، وذهابٍ ورجوع، واستقرارٍ وارتحال لها جميعاً، كما تضيف الآية الثانية اجتماع رزق الله لكل دابة أولاً مع رزقه للناس في المرتبة الثانية، لتزيد في إظهار افتقارهم إليه، وضعف حيلتهم أمام الحصول عليه إلا بأمره وإرادته، فالكائنات لا تملك تدييراً لرزقها غير سعيٍ غريزيٍ فطرت عليه، أما البشر فهم من يتنافسون التدابير المشروعة وغير المشروعة للحصول عليه، ليكون في ذلك امتحانهم وتعبدهم.

﴿...إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

الناصية أعلى الجبهة.. وأخذها صورة حسية تشي بامتلاك القوة والقدرة على تصريف صاحبها وقهره والغلبة عليه، وهي قوة غالبية

مالكة أمرة لا تليق بغير رب العالمين، فإذا صدق توكل الإنسان عليه امتلاً ثقةً به واطمئناً بنصره وإيماناً بوعده، وفي الآية يقينٌ وتوكلٌ من النبي هود، يواجه به عتاة قومه بما يناسب صلابته أجسامهم وبنيتهم وغلظ مشاعرهم وأحاسيسهم، يقلل فيه من قوتهم ويضعف من تأثيرهم بإعلان حقيقة مطلقة تؤكد بصيغة النفي والإثبات - ما من، إلا - أن أي دابة بما فيها الإنسان، مأخوذة بتصريف الله لها، خاضعة لقوانينه، منطوية تحت مشيئته، مغلوبة بسننه وأمره.

﴿...مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥].

أخذه بذنبه مؤاخذة أي عاقبه وجازاه.. والله الذي خلق البشر وأنعم عليهم بآلائه ونعمائه، فإذا بهم يفسدون في الأرض ويظلمون، وينحرفون عن الصراط السوي، يطغى بعضهم على بعض، ويؤذي بعضهم بعضًا، لكن الله بعد ذلك كله يمهلهم ويمنحهم الفرص تلو الفرص للتوبة والعودة إلى جادة الصواب، يرأف بضعفهم ويحلم على تطاولهم، وهو القادر القوي شديد العقاب، إذا أراد أن يعاقب الناس - الذين يفترون بالإمهال - بظلمهم أنفسهم وظلمهم لبعضهم، أو بما كسبوا من أحداثٍ وأمورٍ تغير وجه الأرض، وتؤذي المجتمعات والبلاد والعباد، كان عقابه جماعيًا، شديدًا أليمًا، يأخذهم فيه بعدله وقوته، فيهلك فيه كل الأحياء، وكأنها القيامة قد قامت لتوها على ظهر الأرض، ولكن الله يؤخرهم، لحكمةٍ بالغةٍ ورحمةٍ واسعةٍ، إلى أجلٍ مسمى، لا يعلمه سواه، ليرك باب التوبة مفتوحًا لكل تائب مع فسحة من الوقت تُمكن من أراد وتاب وسعى إلى مرضاة الله.

﴿شَرُّ الدَّوَابِّ﴾

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥].

الدَّوَابُّ جمع دابة، والدابة كما رأينا سابقًا هي كل ما يدب على وجه الأرض، وبذلك يكون الإنسان داخلًا في هذا التعريف رغم أن العرف اللغوي قد حدد الدابة بذوات الأربع من الحيوانات، وبما أن العقل أهم ما يميز الإنسان — عن بقية الدواب — وأهم مهام العقل وأولى واجباته هي تحديد الهدف ومعرفة الغاية، مستعينًا بالجوارح — ومنها أدوات السمع والنطق والفهم — للتفاعل مع المحيط.. لذا يكون شر الدواب من منحهم الله العقول والقلوب وأدواتهما ولم يسخرهما في التفكير السليم فانتهى بهم الحال الى ضلال الطريق، ولو علم الله صدقهم في طلب الحق وحرصهم عليه وإذعانًا له لهيئاً لأسماعهم — كناية عن باقي أدوات الإدراك — الخير الذي ينتفعون به.. بلى.. من

الدواب من هو مطلق التسليم والانقياد لخالقه، تحكمه فطرة تكوينه وتسلم قياده إلى بارئه، فلا يخرج عن مسار فطرته التي فطره الله عليها قيد أمثلة.. ولكن شرّ الدواب من أصمّ أذنيه عن سماع الحق وأبجم لسانه عن قوله أو الدعوة له.. فأرقّ العقل والتعقل، وأبى الخضوع لتكاليف المنهج الرباني والهدي القويم.. أما الآية الثانية فتبين لنا أن الله سبحانه وتعالى قد ألحق الكفار بالدواب رافعاً عنهم فعل الإيمان، وكأنه يريد أن يخبرنا أن الدابة المحكومة بالغريزة خير من الكافر، وبالتالي فإن الكافر شرّ الدواب، الدابة تؤدي مهمتها في الحياة تماماً، بينما لا يستخدم الكافر عقله في أولويات الوجود، ولو استخدم عقله لعرف أنه أقبل على كونٍ قد أُعدَّ إعداداً دقيقاً بكل كائناته ليكون مسخراً للإنسان، لا يتبع الكافر في حياته منهج ربه الذي أنزله إليه، ولا يؤدي مهمته في الأرض، بل يفسد فيها ويسفك الدماء، وبذلك يكون شرّاً من الدابة.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ
يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
[النور: ٤٥].

أثبتت الدراسات العلمية المعاصرة أن خلق الماء سابقٌ لخلق جميع الأحياء، كما أشارت دراسة بقايا الحياة في صخور قشرة الأرض أن الحياة ظلت مقصورة على الماء من ٣٨٠٠ مليون سنة مضت إلى نحو ٤٠٠ مليون سنة مضت، حيث خلقت أول النباتات الأرضية على اليابسة، وكان خلق النبات سابقًا لخلق الحيوان في الوسطين المائي واليابس، إذ لم تُعرف الحياة الحيوانية على اليابسة قبل ٣٦٥ مليون سنة مضت..

ولأن الماء يشكل العنصر الأساسي في بناء أجساد جميع الأحياء - ٧١% من جسم الإنسان، وأكثر من ٩٠% من تركيب أجساد العديد من النباتات والحيوانات - فإن جميع الأنشطة الحياتية وتفاعلاتها كالتغذية والهضم والإطراح والتنفس والتعرق

والتمثيل الضوئي لدى النباتات الخضراء والنمو والتكاثر و.. الخ.. لا تتم في غيبة الماء..

والآية السابقة التي تُرجع خلق كل الدوابّ إلى الماء، تصنّف أنواع الدوابّ وفقاً لطرائق تحركها وانتقالها من مكان لآخر..

الطريقة الأولى هي المشي على البطن.. وتضمّ الديدان اللاقارية عديمة الأطراف، وطائفة من الزواحف لها جلد سميك خالٍ من الغدد ومغطى بالقشور والحراشف القرنية الجافة والصلبة ويعرف منها قرابة ستة آلاف نوع..

الطريقة الثانية هي المشي على رجلين.. كالطيور التي تضمّ أكثر من ٨٦٠٠ نوع لها في كل قدم من قدميها ٣ أصابع فقط، والإنسان الذي أكرمه الله بانتصاب القامة والسير على ساقين، وبعض الحيوانات كالكنغر وبعض القردة العليا..

والطريقة الثالثة هي المشي على أربع.. وتضمّ الثدييات الحافريات التي تتدلى تحت أجسادها أربعة أطرافٍ كالخيول والفيلة والقطط وغيرها.

﴿..دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

دابة الأرض.. إحدى الحشرات التي تأكل خشب الأشجار والأخشاب الجافة وتحفر فيه لتتخذ منه مأوى وطعامًا.. تعتبر من أخطر الآفات الحشرية إذ تحدث خسائر فادحة في جذوع الأشجار وجذورها، وفي أسقف وأبواب ونوافذ المنازل، وأعمدة الهواتف، والأثاث والمفروشات، والملابس، والورق ومنتجاته، والحبوب المخزونة.. وقد تلعب دورًا مهمًا في التخلص من النفايات وتحويلها إلى سمادٍ للتربة، وتساعد في تهويتها وتحسين صفاتها الكيميائية والميكانيكية وإثرائها بالمواد العضوية.. تدعى ناخرات الخشب، قد زوّدها الله تعالى بالأدوات اللازمة للنخر كالزوائد الفمية أو آلة وضع البيض المسننة القوية الموجودة في الأنثى، ومن الجدير بالذكر أن هذه الحشرات تحمل في جهازها الهضمي عددًا من الطفيليات، تتعايش معها، لتعينها على هضم

المادة الخشبية من السيليلوز واللجنين وتحولها إلى مواد صالحة لطعام هذه الحشرة.

إن لفظ دابة يشمل جمع المذكر والمؤنث، ولكن تاء التأنيث في "تأكل منسأته" تدلّ على أن الذي يبدأ النخر في الخشب هي الإناث، وهو سبق علمي لم يكن معروفًا في زمن التنزيل، أما المنسأة فهي عصا خشبية غليظة تؤخر بها الغنم وتزجر.

﴿..أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً﴾

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

الآية من سورة النمل، والمتدبر في هذه السورة بالذات يلاحظ الكثير من مشاهد الحوار والحديث بين النمل والطير الهدهد مع النبي سليمان، ولعل مجيء ذكر الدابة التي تكلم الناس يبدو متناسقًا مع مشاهد السورة وسياقها، فالدابة يومذاك تتكلم ليفهمها الناس العاديون لتكون تلك هي إحدى علامات الساعة.. وقد ورد ذكر خروج الدابة المذكورة هنا في أحاديث كثيرة بعضها صحيح، ولكننا لا نجد في هذا الصحيح وصفًا

للدابة، إنما جاء وصفها في رواياتٍ لم تبلغ حد الصحة، فما يعني شيئاً ان يكون طولها كذا أو لونها كذا أو شكلها كذا من الأوصاف التي أسهبت فيها الروايات، يكفيننا أنها دابة تخرج من الأرض، ولا نعلم كيفية خروجها، وتكلم عامة الناس، وما سبق للدواب الكلام إلا في حضرة النبي سليمان، إنها إذا الخارقة المنبئة باقتراب الساعة، فالقول الفصل في هؤلاء المكذبين بآيات الله قد وقع عليهم، ليسمعوا من الدابة حديث أن الناس لا يوقنون بآيات الله، وإذ يفهمون قولها فيلجمهم كلامها ويعلمون علم اليقين حينها أن لا مجال للتوبة، وأن بابها قد أقفل، وأن الحشر آتٍ، والحساب قريب.

الحمار

﴿وانظر إلى حمارك﴾

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

قصة.. شارك فيها الحمار الإنسان في كونه آية معجزة في البعث، حين جاء السؤال من قبل إنسانٍ عابِرٍ مرَّ على قريةٍ خاويةٍ على عروشها، قفرٍ، خالية من السكان، فتساءل في نفسه ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.. "أَنَّى" التي تضمّ البحث عن الكيف.. وإحياء القرية يتضمّن حكمًا إحياء من يعمرها

ويتحرك فيها، ولقد أراد الله أن يجعل الجواب في تجربةٍ حقيقيةٍ،
خضع لها بدن السائل نفسه، أما لماذا ؟ فلعلها إرادة الله أن
يجعله آيةً للناس..

وجاء جواب "أني" فوراً.. إذ أماته الله مائة عام.. ثم بعثه..
ليُسال كم لبثت ؟.. لبثت يوماً أو بعض يوم - حيث أنه لم ير
في نفسه تغييراً ظاهراً - بل لبثت مائة عام.. (وكان لا بد من
دليل مرئي).. كان الحمار إلى جواره يحمل طعامه.. وقيل له
"انظر إلى طعامك وشرابك".. ها هما لم يتغيرا.. "وانظر إلى
حمارك".. ولكن أين الحمار ؟ لم يكن إلى جواره سوى العظام
المبعثرة.. وهذا لا يمكن أن يحدث في زمنٍ قصير.. لقد طوي
الزمن في مسألة الطعام فبقي كما هو، وبُسط الزمن في مسألة
الحمار فصار رميمًا بالياً، وهو منتهى القدرة الطليقة التي لا
يملكها إلا الله.. وهنا فصل البيان القرآني بين أوامر ثلاث للنظر،
اثنتين منهما إلى أدوات التجربة، انظر إلى الطعام وانظر إلى
الحمار، والثالث إلى الكيفية المطلوبة للإحياء، انظر إلى العظام
كيف ننشرها، ليعلم الله خبراً صريحاً للسائل أنه سيكون آية

للناس.. للسابقين واللاحقين، ولمن في زمن التجربة ربما ومن بعد ذلك بقرون وقرون.. "وانظر إلى العظام كيف ننشزها" فليُنظر إذا إلى العظام.. والكيف سيأتي هنا.. في كيف ننشزها (نرفعها من الأرض) شاهد الرجل كل عظمة من عظام حماره تُرفع وتركب في مكانها.. وبعد تكوين الهيكل العظمي للحمار.. بدأ إكساؤها لحمًا.. وعاد الحمار كما كان حين أعاد الله له الحياة.. إذا.. لقد نظر الرجل إلى مفردات تلك التجربة، وعانين أحداثها المرتبة بدءًا من تساؤلٍ أطلقه في نفسه عن كيفية الإحياء بعد الموت، فإماتته، ثم بعثه، ثم دعوته إلى تلمس الآثار الناتجة حوله عن مرور مائة عام.. لتختتم القصة بالإجابة الواضحة عن التساؤل الأول، من خلال شهود كيفية نشز العظام، وإكساؤها لحمًا، وفي ذلك كله.. بيان صريحٌ لواقعةٍ بينةٍ، لا لبس فيها ولا غموض، تنقل الرجل إلى يقين العلم المؤمن، وتطلق لسانه باعترافٍ بديهيٍّ جريءٍ بقدرة الله على كل شيءٍ.. الخلق ابتداءً، وإعادة الخلق، والإحياء بعد الموت والفناء، إن لمخلوقٍ بمفرده، أو لقريةٍ بأكملها، أو لكونٍ لا حدود له.

﴿كمثل الحمار﴾

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ
يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

الأسفار كتبٌ تعجّ بألوان المعارف المختلفة، وبأنواع العلوم والآداب والفنون.. ولكن حمارًا يحمل هذه الكتب على ظهره، لهو أبعد ما يكون عن إدراك قيمة ونفاسة ما يحمل.. ولعلها أبلغ صورة معبرة عن أولئك الذين آتاهم الله التوراة هديًا ومنهاجًا يعملون وفقه فيما يصلح دنياهم وآخرتهم، فحفظوها ألفاظًا ورددوها كلامًا، ولكنهم لم يأخذوا بها ولم يعملوا بمقتضاها.. جهلاً بقيمتها، وإنكارًا لأثرها، وتكذيبًا بها وآيات الله.. وما هذا المثل البديع إلا ناقوس ذكرى يدوي في كل وقتٍ وآنٍ، ليردع الناس عن أن يقترفوا الجهالة ويمارسوا الباطل، وهم يملكون ناصية العلم ويعرفون أدوات الحق.

﴿أنكر الأصوات﴾

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشِيكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ
لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

في الآية نهيٌّ واضحٌ عن رفع الأصوات دون ضرورة، يتجلى بالحضّ على غضّ الصوت، أي خفضه إلى مستوى الحاجة وكفه عن إيذاء مسامع الآخرين.. إن غضّ الصوت والتزام النبرة الهادئة، أدبٌ جمٌّ، ينبئ عن مكارم الأخلاق، كما أن رفعه عاليًا، بصراخٍ أو صياحٍ أو ضحكٍ، يوحى بالهمجية والطباع المنكرة، ولتحقيق المزيد من النفور من علو الصوت، والمزيد من إنكاره وتجنّبه، شبهه البيان القرآني البليغ المعجز بقبح وبشاعة صوت الحمير.. ولقد أكّدت الدراسات الحديثة أن الضوضاء صورة من صور تلوّث البيئة وأن هناك علاقة وثيقة بين الاستقرار البدني والنفسي للكائن الحيّ بل وللجمادات وبين مستوى الضجيج السائد في ذلك الوسط، أما الأضرار الناشئة عن الضوضاء الصاخبة فهي أكثر من أن تحصى في بحثٍ كهذا..
منها حدوث اضطرابات في وظائف الأذن والأنف والحنجرة

وإمكان فقد حاستي السمع والشم جزئيًا أو كليًا، والإصابة بالعديد من أمراض القلب والأوعية الدموية مثل زيادة نسبة الكوليسترول في الدم، وحدوث الجلطات وتصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم واضطراب إفراز الغدد الصماء، واختلال أنشطة بعض وظائف المخ خاصة في حالات التوتر الشديد، وغير ذلك من الاضطرابات العصبية والنفسية المصاحبة للشعور بالصداع المزمن والضيق والشعور بالإجهاد، وقد ينعكس ذلك على الجهاز العصبي المركزي والجهاز الهضمي، فيؤدي إلى عسر الهضم وحدوث القرحة المختلفة.. ثبت بالقياس أن شدة صوت نقيق الحمار تتجاوز المائة ديسيبل، وأن كثرة التعرض لهذا الصوت قد يصيب الإنسان بالكثير من الأمراض، إضافة إلى ما ينطوي عليه من قبح ظاهرٍ يجعله منكرًا تعافه المسامع.. وبالعودة للآية الكريمة نراها تجمع بين القصد في المشي والغض من الصوت، ذلك أن أصحاب المقاصد النبيلة والأهداف الواعية يلجؤون إلى الإقناع الهادئ والحوار البناء مع الآخرين، مبتعدين عن الصراخ والحديث الرئان الأرعن، ومن كان ذا قصدٍ أو هدفٍ، اتسمت

خطواته في طريقه بالسرعة المتزنة المتوازنة وبالمثابرة، وكانت أبعد ما تكون عن خطأ التسكع والعبثية، وكان كلامه إن اضطر إليه هادئًا خفيضًا، لا يتجاوز حدود الكفاية والغاية.

﴿كأنهم حمرة مستنفرة.. فَرَّتْ مِنْ قِسْوَةِ﴾

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ

(٥٠) فَرَّتْ مِنْ قِسْوَةِ (٥١)﴾ [المدثر].

الجرمين يوصلهم كسبهم المشفوع بدواعي الإعراض عن الله إلى دركات جهنم ويدخلهم في سقر، تركوا عبادة الله بالصلاة إنكارًا لها، وتجاهلوا تقديم العون للضعفاء من الناس، وتكلموا فيما لا يعلمون، كلما غوى غاوٍ شاركوه في غوايته، ولم يحسبوا لآخرتهم حسابًا، وعاشوا الغفلة والعصيان والتكذيب طيلة حياتهم، حتى جاءهم الموت، فماتوا وهم كفار، رغم أنهم قد تلقوا الهداية والمنهج مقترنين بالبشائر والإنذارات.. بلى.. لقد تلقوا التذكرة فأعرضوا عنها، ونفروا من الحق، كما تنفر حُمُر الوحش البرية من أسد الغاب يقتحم موطنها ويهمم بافتراسها.. إن الصورة الحسية لاستنفار قطيع الحمر وهروبها في كل اتجاه هربًا من قبضة

المفترس، تشبيهه مؤثّر لافت لأولئك الذين أعرضوا عن الله ولاذوا
بالفرار من إحكام قبضة الحق التكليفية في كل اتجاهٍ باطلٍ،
إمعاناً في الكبر والإنكار والإفساد.

الطير

﴿كيف تحيي الموتى..... خذ أربعةً من الطير﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

نبيان من أنبياء الله ارتبط اسمهما بالمخلوق الجميل، الطير.. وبالرغم من نبوة ابراهيم وعيسى، وقرار اصطفايتهما وآلهما على العالمين، فقد اقتربا من أكثر القضايا الشائكة على الإطلاق، قضية إحياء الموتى وإعادة الخلق، أو الخلق ابتداءً.. وفي الآيات السابقة.. سأل النبي ابراهيم عليه السلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، وما من شكٍ يداخله أو يراوده في قدرة الله على ذلك - حاشاه - ولكن طلباً لطمأنينة قلبٍ تعصف به هواجس الهدى المبني على أسس العلم العقلي، إذ نراه فتىً يقلب بصره في الأكوان والأجرام السماوية والكواكب طالباً الهداية الساطعة مثل

ضياء الشمس في كبد السماء.. ها هو يسأل عن كيفية إحياء الموتى "كيف؟" ليعلمنا أن نبحث عن الكيفية التي تتم بها الأشياء.. لتكون "كيف؟" بوصلةً شاملة لنا، تقودنا في مجاهل عوالمنا، وتكشف لنا الأسرار والحقائق.. "كيف؟" .. لنعلم أن القرآن قد بيّن لنا أن السؤال لا تحدّه حدود، وأنه مفتوح على كل الاتجاهات، ليس فيه منطقة حظر محرّمة، ولا باب للعلم تعلوه لوحة ممنوع الدخول، المهم أن يكون الباعث على السؤال طلب المزيد من اليقين والإيمان والفهم والرسوخ في العلم.. مع أن القرآن نهى في موطن آخر عن السؤال عن أشياء ﴿إن تبد لكم تسوءكم﴾.. لتعلم التفريق بين أسئلة تفتح الأفهام على آفاق واسعة متنورة، وأسئلة تدخل في دوامات الانغلاق والضيق والخرج.. ونعود للآيات لنجد سؤالاً منطقيًا يردّ على سؤال إبراهيم "أولم تؤمن"، "قال بلى" إذا فالطلب ليس لتحقيق الإيمان، فهو حاصل ومؤكّد، المطلوب من الإجابة اطمئنان القلب، والقلب موضعٌ يشترك فيه العقل والعاطفة، فما يثق به العقل من مسلّمات موضوعية واقعية تطمئن به العاطفة وتأنس

إلى الانفعال به دون حرجٍ أو ريبٍ.. لهذا فقد تاق النبي إبراهيم إلى ترسيخ المزيد من طمأنينة قلبه وتدعيم إيمانه ببرهانٍ عقليٍ قاطع يملكه ناصية المعرفة العملية في كيفية حدوث الأشياء.. ومن أجل إجراء التجربة الحسية المطلوبة، كان لابد من كائن حيٍّ تجرّى عليه التجربة، والطيور أقرب تناولاً وأسرع صيداً.. لذا أمر الله تعالى نبيّه أن يأخذ أربعة طيور - مختلفة على الأغلب - وأن يملهنّ إليه، ثم يضعها على أربعة جبال، على كل جبلٍ منهن جزءاً، ثم يدعهنّ، ليأتينه سعيّاً، والقرآن لم يخبرنا إن كان إبراهيم قد قام بهذه التجربة التي ذُكرت تفاصيلها أم لا.. والسعي لا يناسب الطيور التي من شأنها الطيران، لكن الله أراد ألا يدع أي مجال لاختلاط طيور التجربة بغيرها، مما قد يفسد التجربة، فجعل طيور إبراهيم بالذات تأتي إليه سائرَةً سعيّاً.. وبعد أربعة أوامر حركية فعلية هي، خذْ، صرهنّ، اجعلنّ، ادعهنّ.. تختتم الآية بأمرٍ صريحٍ هو، اعلمنّ، ليكون العلم في النهاية هو الغاية المنشودة وراء الحركة والفعل المشفوعين بالتساؤل والفضول

المعريف، العلم الذي يوصل دائماً وأبداً إلى معرفة صفات الله
العزیز الحكيم.

﴿كهية الطير﴾

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي
أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِّنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا
يَاذَنُ اللَّهُ وَأُبرئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ يَاذَنُ اللَّهُ
وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ
وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا
وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ
مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ يَاذَنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا يَاذَنِي
وَتُبرئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ يَاذَنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ يَاذَنِي وَإِذْ
كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

هنا يبرز شكل الطير وهيئته المغزلية البسيطة التكوين، ليكون من أهم أسباب اتخاذ هذا الكائن الحيّ للتجربة الثانية في إطار قضية الخلق على يد النبي عيسى، ولقد أراد القرآن أن يثبت أن قدرة عيسى عليه السلام تقف عند حدود أن يصنع من الطين ما هو على هيئة طير، وعلى أن ينفخ فيه، النفخ في الآية الأولى في الطين والنفخ في الآية الثانية في الهيئة.. أما أن يكون طيراً مخلوقاً حياً، فلا يكون ذلك إلا بإذن الله، لأن الله يخلق من عدم والبشر يخلقون من موجود.. كذلك إبراء الأكمه والأبرص - والأكمه من وُلد وهو أعمى، والأبرص من في جلده بقعٌ بيضاء تغاير لون الأصلي - وإحياء الموتى، كله بإذن الله.. أما إخباره للناس بما يأكلون في بيوتهم وما يدّخرون، فهو أمرٌ ضمن طاقات البشر الاستثنائية، يستطيعون تنميتها من خلال ممارسات حدسٍ مدربٍ مرهف، واستشرافٍ ما ورائي قابلٍ للتطوير.. ولا يفوتنا أن نذكر أن معجزات الرسل عادةً ما تكون من جنس ما يبرع وينبغ فيه أقوامهم، ولقد كان قوم عيسى عليه السلام نابغون بالطب.

﴿إلا أمم أمثالكم﴾

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ
أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

أكدت الكشوف العلمية المتلاحقة وفي مقدمتها علم الوراثة أن الوحدة التصنيفية للأحياء هي "النوع" الذي نشر الخالق منه بلايين الأفراد، وجمعها في عدد من الأمم أو الجماعات، والتي يعيش كل منها في منطقة محددة من الأرض وتحت ظروف بيئية خاصة.. واليوم يعرف علماء الأحياء أكثر من مليون ونصف نوعاً يعمر مختلف البيئات المائية والبرية والهوائية، كما يعرف علماء الأحافير أكثر من ربع مليون نوعاً من أنواع الحياة البائدة، كل نوعٍ من هذه الأنواع، يشمل مجموعة من الأمم أو الجماعات، تضمّ بلايين الأفراد التي تجمعها صفاتٌ خارجية شكلية وصفية واحدة، صفاتٌ داخلية تشريحية واحدة، وظائف أعضاء واحدة، بنية كيميائية حيوية واحدة، صفاتٌ وراثية أساسية واحدة، وظروف بيئية متقاربة وإن تباعدت مواطنها على

وجه الأرض.. وعلى ذلك.. فإن الأفراد من نوعين مختلفين يستحيل أن يتمّ بينهما تلاقحٍ مثمرٍ يؤدي إلى سلالةٍ خصبةٍ أبداً، أي أنه لا يمكن لنوعٍ أن يتكاثر وينسل خارج نوعه أبداً.. وهذا يؤكّد تماماً أن كل نوع من الأحياء بأفراده وأمه هو كيان خاصٌ معزولٌ عن غيره من أفراد وأمم النوع الآخر.. وما ينطبق على النوع البشري مما سبق من وحدة الصفات، ينطبق على كل نوعٍ على حدة.

﴿تأكل الطير منه﴾

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

﴿يَا صَاحِبِ السَّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فَضِي الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١].

علّم الله نبيّه يوسف عليه السلام تأويل الأحلام وتعبير الرؤى.. ليكون لهذه الموهبة والملّكة الدور الهام والأثر البليغ في وصوله في مستقبل أيامه إلى سدة الحكم.. يحمل خبر وجود هذه القدرة وفرادتها إلى الملكِ سجينٍ ناجٍ، نبأه يوسف بتأويل رؤياه حين كان في السجن مع صاحبه.. ولأنني أبحث في تضاعيف هذه الحادثة عن معنىٍ خاص، ينشر لي من ظلال الحكمة ما ترقى به الروح والعقل، فإني ألمح في أن إتقان الإنسان لمواهبه والمثابرة على تنميتها وصقلها، يمكنه ذلك من أدواتٍ فعّالةٍ، تسعفه وتخدمه عندما تحين الفرص وتهبّ رياحها، فيكون اغتنامها أبلغ وأسهل.. وفي الآية السابقة ذكر السجين الذي رأى في منامه أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، والتي كان من تأويلها أنه يصلب فتأكل الطير من رأسه، وهو ما كان بالفعل، ولقد بحثت عن تأويل رؤية الطير في المنام، وها هي نبذة من تفاسيرها في كتاب تفسير الأحلام لابن سيرين.. الطائر المجهول دال على ملك الموت، إذا التقط حصاة أو ورقة أو دوداً أو أي شيءٍ وطار بها إلى السماء من بيت فيه مريض مات.. وقد يدل على

العمل لمن رآه على رأسه وعلى كتفه وفي حجره أو عنقه، لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ أي عمله، فإن كان أبيض فهو صاف، وإن كان كدرًا ملونًا فهو عمل مشوب غير صاف.. وأما الطائر المعروف بشكله أو باسمه، فتأويله على قدره، والأمثلة أكثر من أن تحصى في كتابٍ فكريٍّ صغيرٍ مثل هذا الكتاب.. ومن أجل التحليق فوق جناح المعلومة الغريبة، الغيبية ربما، وعلى سبيل الطرافة والمؤانسة والتفكّه، أذكر فيما يلي بعضًا منها :

العقاب : رجل قوي صاحب حرب، لا يأمنه قريب ولا بعيد، وفرخه ولد شجاع يصاحب السلطان.. ومن رأى العقاب على سطح دار أو في باحتها، دلت الرؤيا على ملك الموت، فإن رأى عقاباً سقط على رأسه، فإنه يموت، لأن العقاب إذا أخذ حيواناً بمخلبه قتله.. فإن رأى أنه أصاب عقاباً فطاوعه، فإنه يخالط ملكاً.. ومن رأى عقاباً ضربه بمخلبه، أصابته شدة في نفسه وماله.. ومن رأى عقاباً يقترب منه أو يعطيه شيئاً أو يكلمه بكلام يفهمه، فإن ذلك منفعة وخير.

النسر : أقوى الطير وأرفعها في الطيران وأحدّها بصراً وأطولها عمراً، فمن رأى النسر عاصياً عليه، غضب عليه السلطان.. ومن أصاب من ريشه أو عظامه، أصاب مالا عظيماً من ملك عظيم.. فإن سقط عن ظهره، أصابه هول وغمّ وربما هلك.. فإن وهب له فرخ نسر، رزق ولدأً ذا شأن.. فإن رأى ذلك نهاراً، فإنه مرضٌ يشرف منه على الموت.. فإن خدشه النسر طال مرضه.. ومن تحول نسرأً طال عمره.

وسباع الطيور كلها : مثل البازي والشاهين والصقر والنسر والباشق تنسب إلى السلطان والشرف، فمن حمله طائر منها وطار به حتى بلغ السماء، سافر سفراً في سلطانٍ بعيدٍ بقدر ذلك الطائر.. فإن دخل في السماء مات في سفره ذلك.

البيغاء : رجل نحاس كذاب ظلوم.. وقيل هو رجل فيلسوف.

البلبل : رجل موسر وامرأة موسرة، وقيل هو غلام صغير وولد مبارك قارئ لكتاب الله تعالى، لا يلحن فيه .

وأما العندليب فهو : امرأة حسنة الكلام لطيفة، أو رجل مطرب أو قارئ.. وهو للسلطان وزير حسن التدبير.

الهدهد : رجل بصير في عمله وناقد، يتعاطى دقيق العلم.
الديك : في أصل التأويل عبد مملوك أعجمي أو من نسل مملوك
وكذلك الدجاج لأنهم عند ابن آدم كالأسير، لا يطيرون.
قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : رأيت كأنّ ديكاً تقرني
نقرة أو نقرتين، أو ثلاثة، وقصصتها على أسماء بنت عميس
فقالت : يقتلك رجل من العجم المماليك.
الحمامة : هي المرأة الصالحة المحبوبة التي لا تبغي ببعليها بديلاً،
وتدل على الخير الطارئ والرسول والكتاب، لأنها تنقل الخير،
وأصل ذلك أنّ نوحاً بعث الغراب ليعرف له أمر الماء، فوجد
جيفة طافية على الماء فاشتغل بها، فأرسل الحمامة فأنته بورقة
خضراء، فدعا لها، فهي لمن كان في شدة أو له غائب بشرى إذا
سقطت عليه أو أتته طائراً، إلا أن يكون مريضاً فإنها حمام
الموت، ولا سيما إن كانت من اليمام وناحت عند رأسه في
المنام.. وربما كانت الحمامة بنتاً.. ومن رأى الطير يطرق فوق
رأسه، نال ولاية ورياسة، فإن رأى طيوراً تطير في محله، فإنهم
الملائكة.

﴿فتخطفه الطير﴾

﴿ حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ
مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ
سَحِيقٍ ﴾ (٣١) ﴿ [الحج].

حنفاء جمع حنيف وهو المائل من شرٍ إلى خير فيصح ميله إلى الإسلام ويثبت عليه، والحنفاء فريق من عرب الجاهلية قبل الإسلام، كانوا ينكرون الوثنية ويؤمنون بدين إبراهيم، واليوم المطلوب من كل الناس أن يميلوا عن الشرك كله ويستقيموا على التوحيد الخالص الصادق، لأن الذي يشرك بالله فكأنه يلجأ إلى قدراتٍ واهنةٍ ضعيفةٍ واهيةٍ ليعتمد عليها في شؤون حياته، أشياء أو أحياء لا تنفع ولا تدعم ولا توازر ولا تساند، تاركًا القوة المطلقة الأعلى ألا وهي قدرة رب العالمين، فكأنه يسقط من السماء سقوطًا مرعبًا مريعًا وقد خلت يديه من أسباب تجعل هبوطه سليمًا كمظلة هبوط أو طائرة أو منطاد أو أية وسيلةٍ أخرى، وفي أثناء سقوطه تتخاطفه الطيور الجوارح في الهواء قبل أن يصل إلى الأرض، أو تشتد به الريح القوية فترمي به في مكانٍ

مجهول لا سبيل إلى معرفته أو الوصول إليه، والصورة الحسية التي يرسمها البيان الإلهي كناية عن فقد حبلٍ متينٍ يستمسك به موصولاً بالسماء ويلجئه إلى قدرة إلهية وعناية ربانية، واستعمال القرآن لفظة "خرّ من السماء" تناسب المشهد بتفاصيل دقيقة، ف"خرّ" سقط من علٍ إلى سُفلٍ بصوت، بينما "سقط" وقع من كذا في كذا أو عليه أو إليه، وهي لا توفي بغرض الهوي من شائق.

﴿الطير مسخرات.. صفات﴾

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].

في الطيران والتحليق آيات لقوم يؤمنون.. كيف ولماذا ؟ وهل يزيد من الإيمان أن نراقب الطير مستخرات صفات في جو السماء، تفرد أجنحتها وتزفر بها، ثم تنساب فوق متن الهواء في انسيابية رائعة.. هل في تلك الحركة من الأسرار ما يلفت القرآن نظر المؤمن إليها لعله يستفيد أو يتعلم ؟ دعونا نبحث.. وننظر.. ونؤمن..

صفات.. وصف للطيور وهي تخلق في السماء.. والطير تسبح رها في حال طيرانها، وقد خصّها بالذكر هنا ليدفع وهم من يتوهم أن التسبيح مقتصرٌ على المستقرين على وجه الأرض من مخلوقات، فلننفض عنا حجة أن الذكر والتسبيح يحتاجان جلسة معينة في زاوية وركن، وأنهما لا يكونا بغير ذلك، وهلمّ فلندكر الله على كل حال نحن عليه..

في الآيات تحريضٌ على الرؤية.. ألم تر.. ألم يروا.. دعوة مستمرة لإطلاق البصر والنظر فيما حولنا، ومع البصر تبصّر ومع النظر اعتبارٌ وتفكيرٌ، مما يعود على المرء بحصيلةٍ من فائدةٍ أو منفعةٍ، ولقد نظر الناس إلى الطيور المحلّقة في السماء فاشتبهوا الطيران

والتحليق والارتفاع مثلها، وراحوا يحلمون بهذا منذ آلاف السنين، وما الآثار القديمة والرسومات الصغيرة ذات الأجنحة الكبيرة بأشكالها العديدة التي نقشها قُدماء المصريين والآشوريين على جدران مقابرهم، ومداخل معابدهم إلا دليل يوضح مقدار شوقهم إلى الطيران، وتخيلاتهم في تلك الأيام، واستمر الخيال، وتنوع الابتكار، وتعددت الأفكار في الأساطير القديمة والقصص الخرافية العديدة، التي تناقلها القدماء عن التحليق في الهواء، وقد روى قدماء اليونانيين قصة مخترع يدعى ديدالوس وابنه إيكاروس كانا قد طارا في الهواء بأجنحة من الريش والشمع، ولما اقترب إيكاروس كثيراً من قرص الشمس تسببت حرارتها في انصهار أجنحته، مما أدّى إلى سقوطه في مياه البحر وغرقه.

والسطور القادمة تحملنا على أجنحتها الصافات عبر تاريخ الطيران لنشهد تحوّل الحلم البشري في الطيران إلى حقيقة ملموسة، ففي عام ٤٠٠ ق.م صنع عالم يوناني يدعى أرشيتاس حمامة خشبية تتحرك في الهواء، ولم يعرف إلى الآن كيف استطاع

أرشيئاس أن يجعل هذه الحمامة تطير، ويُعتقد أنه قام بربط هذا الطائر بذراع دوار، واستخدم بخارًا أو غازًا لتحريكه في اتجاه دوراني، وفيما بين ٤٠٠ ق.م-٣٠٠ ق.م، اكتشف الصينيون طريقة تصنيع الطائرة الورقية، وهي شكل من أشكال الطائرات الشراعية، وبعد فترة استخدمت الطائرات الورقية لحمل أشخاص في الهواء.. وخلال القرن الثالث قبل الميلاد، قام العالم الرياضي والمبتكر الكبير، اليوناني الجنسية أرخميدس، باكتشاف سبب طفو الأجسام وكيفيته.. وفي عام ٨٨٠ م قام عباس بن فرناس وهو مخترع أندلسي من موالى بني أمية، كان فيلسوفاً شاعراً، وله علم بالفلك، ومن أشهر أعماله أنه صنع ساعة لقياس الوقت ودعاها الميقاتة، وبنى في بيته قبة سماوية مثل فيها النجوم، والغيوم، والبرق، والرعد وقد ختم حياته بمحاولة جريئة بعد أن صنع لنفسه أجنحة من الريش الكبير وكسى جسده بريش صغير وقفز من علي، وتمكن من الطيران مدة قصيرة وسقط سقطته الأخيرة عام ٨٨٧ م، وهناك رائد عربي آخر فكّر في الطيران وصمم على تنفيذ خطته وضحّى لتحقيق أمنيته، هو أبو النصر

إسماعيل الجوهري، وكان ذلك عام ١٠٠٨م، فبعد أن خطب في العباد صعد إلى قمة مسجد مدينة نيسابور ولبس أجنحة على شكل شرع، ووضع على وجهه قناعاً، وقفز بقوة وشجاعة، ولكنه سقط على الأرض وكانت هذه النهاية الحزينة هي خاتمة المحاولات البشرية للطيران بتقليد الطيور في طيرانها باستخدام أسلوب الجناحين المرففين.

كان الفيلسوف الإنجليزي روجر بيكون الذي عاش في القرن الثالث عشر، من أوائل الذين حاولوا الاستكشاف العلمي لمحاولة الإنسان للطيران، ففي عام ١٢٥٠م قام بأول محاولة لاستخدام بالون مملوء بالغاز، وتنبأ بأن الإنسان سيتمكن من الطيران بعد أن يصنع طائرة يجلس فيها، ويسخر آلة تحركها، أو تحرك أجنحتها لتطير به كالطيور وتسابق النسور، وفي نحو عام ١٢٩٠م سجل أن الهواء - مثله مثل الماء - يحتوي على جسيمات صلبة واستنتج بيكون، بعد أن درس أفكار أرخميدس أنه إذا أمكن بناء النوع الصحيح من المركبات، فسوف يرفعها الهواء كما يرفع الماء السفن.

وفي نحو عام ١٥٠٠ م رسم الفنان والمبتكر الإيطالي ليوناردو دافينشي جهاز الأورنيثوبتر، وهي طائرة ذات جناحين خفاقين كأجنحة الطيور، وهو أول من أجرى التجارب العملية، واستنتج النظريات الهندسية، وسجل حركات الطيور الفنية، وبحث حركة الهواء، وأثبت أنها تشابه حركة الماء.

وفي عام ١٦١٧م، صمم فوست فرانزو أول مظلة هبوط مصنوعة من إطار من الخشب الخفيف المغطى بالقماش، يشبه جناح الخفاش، وهبط بها من أعلى قلعة في مدينة فينسيا، ووصل إلى الأرض سالماً.

وفي عام ١٦٨٠م أثبت العالم الرياضي الإيطالي جيوفاني بوريللي استحالة أن يطير الإنسان عن طريق رفة الأجنحة حيث أثبت أن عضلات جسم الإنسان أضعف من أن تتمكن من تحريك الأسطح الكبيرة المطلوبة لرفع وزنه في الهواء، وكان ذلك بعد ملاحظة حركة الهواء حول أجسام الطيور، وحساب مساحة أجنحتها بالنسبة لوزنها وتقدير قوتها وكان لتصريحه أثر كبير في تغيير الاتجاهات إلى بناء الطائرات.

كما أسس كايلي أيضًا علم الديناميكا الهوائية لدراسة تأثير سريان الهواء حول الأجسام وربما كان هو أول من وصف الطائرة على أنها ذات محرك وجناح ثابت وأنها تندفع في الهواء بواسطة المراوح الأمامية.

وعقب المحاولات الأولى لطيران البالونات، حاول المخترعون ابتكار آلة أثقل من الهواء تتمكن من التحليق والطيران، وقد حاول بعضهم إجراء التجارب على الطائرات الشراعية وهي طائرات بدون دفع آلي، وعند دراستهم لأجنحة الطيور لاحظ المبتكرون أنها محدبة، لذلك فقد تمكنوا من جعل طائراتهم الشراعية تطير مئات الأمتار بتزويدها بأجنحة محدبة بدلاً من الأجنحة المستوية، واليوم تتمكن الطائرة من الطيران بفعل محركاتها وأجنحتها، حيث تقوم المحركات بدفع الطائرة إلى الأمام مخترقة الهواء الجوي ويتسبب اندفاع الطائرة في تحرك الهواء الذي يسري فوق السطح العلوي للجناح بسرعة متزايدة مما يؤدي إلى انخفاض ضغطه، مقارنة بضغط الهواء عند السطح السفلي للجناح ويحافظ فرق الضغط هذا والذي يطلق عليه قوة الرفع،

على استمرار تحليق الطائرة في الهواء، ويستطيع الطيار المحافظة على اتزان الطائرة أثناء الطيران بالضبط المتواصل لأسطح التحكم وهي أجزاء متحركة في كل من الجناح والذيل، وتُسمى الأنشطة الخاصة بعمليات تصميم وتركيب الطائرات بعلم الطيران.

﴿داوود.. والطير﴾

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعَلَّمْنَا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩)﴾ [الأنبياء].

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَخَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧)﴾ [النمل].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠)﴾ [سبأ].

﴿وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا
الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ
مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩)﴾ [ص].

ما من شيء في هذا الكون إلا ويسبِّح خالقه، والتسبيح حقيقة صادرة عن نطقٍ، منهم من نسمع صوته، من بشرٍ يتكلمون لغةً غير لغتنا، ومن حيوان أو طير، ولكن لا نفقه تسبيحهم، ومنهم من لا نسمع له صوتاً كالنبات والجماد ونحوهما.. أما داوود وسليمان.. نبيا الله عليهما السلام.. فقد سخر الله معهما الجبال والطير لغاية التسبيح، وعلمهما منطق عموم الطير والحيوان والجمادات، وأعطاهما قوة السماع والتحمل دون اضطراب، حتى منطق النبات، فكانا يمران على الشجرة فتذكر لهما منافعها ومضارها، وأوتيا من كل شيء، وحشر لهما جنودهما من الجنّ والإنس والطير، وقد كان يقوم بحشرهم وجمعهم أشخاص متخصصون لجمع تلك الجنود حين يؤمر بذلك، يجمعونهم دون أن يتخلّف منهم أحدٌ، مرتبين بانتظام معيّن، وقد روي عن سعيد بن جابر أنه قال : كان يوضع

لسليمان عليه السلام ٣٠٠ ألف كرسي فيجلس مؤمني الإنس مما يليه، ويجلس مؤمني الجن من ورائهم، ثم يأمر الطير فتنزل، ثم يأمر الريح فتحمله، وبهذا كان لكل منهم واجباته وأعماله المنوطة به.

﴿وفاكهة.. ولحم طير﴾

﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١)﴾ [الواقعة].

تحتوي الفاكهة على الفيتامينات والأملاح المعدنية، وهي تقوم بتنقية الدم، وضبط عمل جهاز الهضم، وإذابة السموم بل والقضاء على آثارها.. ومن المفيد أن نذكر أن قشور الفاكهة تحوي على غذاءٍ رائعٍ لا يجوز لنا التفريط فيه، وأن ما احتوى عليه اللب لا يغني عن القشرة المعرضة لأشعة الشمس، مما يفيد في بناء العظام وتثبيتها.. وعلى الإنسان الذي يهتم بصحة وسلامة غذائه أن يعرف الخصائص الشفائية والوقائية والغذائية لكل فاكهة من الفواكه حتى يكون على بصيرة مما يختار لنفسه

منها، ففي مختلف أنواع الفواكه كثر دوائي غذائي نادرٌ وريخيص الثمن.

لقد اعتدنا في الحالات العادية على تناول الفواكه في آخر وجبات الطعام، كلونٍ ثانويٍّ، وكثيراً ما نصرف النظر عنها إذا ما شعرنا بالامتلاء والشبع، ولو كنا أكثر رغبةً في تحقيق الفائدة المرجوة من الغذاء لبدأنا طعامنا بالفواكه للاستفادة منها كغذاءٍ أساسيٍّ وهامٍ.. ولقد بدأت الآية الكريمة بالفاكهة ثم بالطعام وهذا إعجاز قرآني، إذ أثبت العلم أن تناول الفاكهة بعد الوجبات الغذائية من الأخطاء الشائعة إذ تسبب في تدمير إنزيم بتيالين وهو إنزيم أساسي لإتمام عملية هضم النشويات، فهو أشبه بتناول جرعة من السم، ذلك أن الفاكهة تحتاج إلى مرور بطئٍ إلى المعدة حتى تهضم بطريقة طبيعية ، فإذا التقت باللحوم تتخمر في المعدة وقد تتحول إلى كحول يعوق عملية الهضم وفي الوقت نفسه تفقد الفاكهة كل ما تحتويه من فيتامينات وتضطرب عملية التمثيل الغذائي للبروتين ، بالإضافة إلى أن التحلل غير العادي للبروتينات ينتج عنه انتفاخ المعدة وامتلاء

البطن بالهواء، وينصح أحد مستشاري التغذية والصحة العامة
والمناعة بتناول الفاكهة في ثلاث أوقاتٍ فقط.. بعد نحو ثلاث
ساعات من تناول وجبة الغداء، أو تناولها قبل العشاء بساعة،
أو تناول وجبة كاملة من الفاكهة فقط، واعلم أنك إذا كنت
تأكل الفاكهة على معدة فارغة، فإن ذلك يؤدي بدور رئيسي
وفعال لإزالة سمية جهازك الهضمي، وفي نفس الوقت سوف يمد
الجسم بقدر كبير من الطاقة اللازمة لإنقاص الوزن وغيرها من
أنشطة الحياة المتعددة، ذلك أن تناول الفاكهة قبل الأكل يمنع
تراكم الدهون، وبما أن الكثيرين يعانون من السمنة التي تشكل
خطرًا كبيرًا على حالتهم الصحية، فهم يبحثون عن الطريقة
المثلى التي تخلصهم من الوزن الزائد عبر اتباع أنظمة غذائية
مختلفة أماً في الحصول على القوام المناسب، وتتفاقم مشكلة
البدناء في أن الجزء السفلي من الجسم يزيد حجمه قبل بقية
الأجزاء، بينما تبدأ خسارة الوزن عند اتباع الحمية من الجزء
العلوي أولاً، وأضاف علم الفسيولوجي والرياضة أن الوجه هو
أول جزء يتأثر بعملية إنقاص الوزن، بسبب حدوث ضمورٍ في

خلايا بشرة الوجه، وأشار إلى أن تناول تفاح وموز وخيار قبل تناول أي وجبة يساعد في منح الوجه نضارته ورونقه وحيويته، كما يساعد في إذابة الدهون بطريقة سليمة.

أما بالنسبة للحم الطيور فيمتاز برقته إذ يحتوي على أنسجة عضلية مرنة يسهل تفتيتها لأنها خالية من الغلاف القاسي الذي يلفّ عضلات لحم الماشية، وينتج عن ذلك تسهيل مهمة المضغ والهضم إلى حدّ كبير، والطيور غنية بالمادة البروتينية التي تحتاجها أجسامنا، وبمجموعة فيتامينات (ب) وكميات من فيتامينات (ب ب) التي تسهل عملية توسيع الأوعية الدموية المحيطة، إضافة إلى وجود الحديد والأملاح والمواد المعدنية.

الخيـل

﴿والخيـل المسؤـمة..﴾

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ
الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ
وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ
الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

الزينة أمر فوق الأصل وزيادة على الضرورة، والشهوة ميل قوي إلى عمل ما، وتزيين حب الشهوات للناس، يحتمل وجود أكثر من مُزَيَّنٍ، فإذا كان ضمن حدود ممارسة الحياة واستبقائها واستمرارها، يكون مقبولاً لأنه من الله، أما إذا تجاوز حدود الاعتدال والحاجة والضرورة، يصير ممقوتاً لأنه من الشيطان، والآية تذكر النساء، لغاية بقاء النوع وللحصول على السكن النفسي الذي يحقق توازن العاطفة والمتع الحلال.. والبنين، لغاية تكاثر الجهود القوية المطلوبة لإعمار الكون، ففي الذكورة قوة مشهودة، وعنفوان مؤثر، وصلابة مطلوبة.. وقناطر الخيل

والفضة، والمال عموماً لكونه عصب الحياة المحرّك، وارتباط كلمة قناطير بالذهب ترمي إلى شهوة التملك الواسع والشراء الفاحش.. والخيل، لأهميتها ولكثرة قربها من حياة الناس لكونها أدوات تعين على الحركة في السلم والحرب، ولتنوع طبيعة العلاقة معها، يتفرق ذكرها في أنحاء عديدة ومختلفة من سور القرآن الكريم.. وقد بدأ هنا باعتبارها من المتاع المشتهى في الحياة الدنيا، ثم أورد بعد ذلك ذكرها في كونها حيوانات خلقها الله لغرض الركوب والزينة وحمل الأثقال حصراً، لا لغرض الأكل منها، أما وصفه الخيل بالمسومة فيشمل أكثر من معنى، كأن تكون الخيل حرّة ترتع في مراعي واسعة تأكل منها حيث تشاء، غير مربوطة في اسطبلاتٍ تأكل فقط ما يقدّم لها من طعام، أو أن تكون الخيل مروّضة ومدريّة تمّ تعليمها واستئناسها للانتفاع بعد أن كانت بريّة متوحشة، أو أن يكون لهذه الخيل علامات كالغرة والتحجيل، مع فوارق ألوانها لتدعى بها كالأدهم والأشقر.. والأنعام، التي تضمّ أربعة أنواع هي، بقر وإبل وضأن ومعز، كمصدرٍ حيواني اختصاصها برخصة الأكل من لحومها والانتفاع منها بمنافع كثيرة،

والحرث كمصدر نباتي، لأرزاق الناس وغذائهم.. هذه الشهوات جميعها، وفي كلا حديها المقبول والممقوت، لا تتجاوز كونها عرضٌ زائلٌ ومتاع حياةٍ دنيا تفتى وتزول، إما بزوالها هي أو بزوال صاحبها بموته، فإن أحسن الإنسان قيادة شهواته الجارحة من خلال استثمار هذه الأمتعة في نفعه ونفع الآخرين، مبتغيًا مرضاة خالقه، آل إلى ما عند الله من نعيمٍ أخروي.

﴿ومن رباط الخيل﴾

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]

وأقف أولاً للحظاتٍ عند "لهم" التي جاءت بعد وأعدوا، لأتساءل من هم؟! والميم تدلّ على الكثرة والجماعة، والكثرة جماعات متباينة، والجماعة أفرادٌ مختلفون.. ولكل فردٍ أسلوبه وهويته، مما يتطلب منا وعيًا شاملاً ومعرفةً كاملة بهم - أفرادًا وجماعات - بخصائصهم، بأدواتهم، بأسرار كياناتهم، بطرائق

تفكيرهم، بنقاط ضعفهم وقوتهم، بأساليب دفاعهم وهجومهم..
عندها نعرف من هم أعداؤنا؟.. وهم كلهم جميعًا يتحدون
ليكونوا عدوًّا بيّنًا ظاهرًا لنا.. بعد أن يكونوا عدوًّا لله..
وتمنحنا الآية معلومةً خطيرةً جدًّا حول وجود آخرين من دونهم،
يخفي أمرهم علينا، يتآمرون ويخططون ويدأبون ويسرفون
ويغالون، خلف جدران العداة الخفي المستحكم.. الله يعلمهم،
ويعلم تديبرهم وخفاياهم، ولكنه عزّ وجل يمنحنا فرصة التغلب
عليهم وإرهابهم حين نعد لهم ما استطعنا من قوة.. "وأعدّوا"
والإعداد دائميًا يكون في مرحلة السلام.. بالتدريب المستمر،
وتحسين الأداء للوصول إلى الجاهزية الكاملة.. و "ما استطعتم"
تعني تحرّي الوصول إلى الحدّ الأعلى للاستطاعة والجاهزية.. أما
كلمة "من قوة" فإن إيرادها نكرة غير معرفة، مقصودٌ، ليشمل
كل ما يقع تحت جنس القوة.. وما أكثر القوى لو أردنا لها
إحصاءً.. قوة العقيدة لإعلاء كلمة الله، قوة الحب والانفعال
والغيرة على الأرض والعرض، قوة النظام والتنظيم الذي يعمل
ضمن هيكلية الجنود والقادة، قوة الإيمان بنصرة الله للحق، قوة

النفس في الإقدام على الموت بشرفٍ وعزة وكرامة، قوة الأعصاب في مواجهة مفاجآت الحرب والمعارك، قوة الإصرار والعزم على النصر، قوة القدرة على حسن اتخاذ القرار المناسب للتحرك، وقوة معرفة نقاط الضعف والقوة عند العدو وحسن استغلالهما.. وغيرها.. وغيرها من القوى المعنوية والنفسية والتي لا تقل أهمية عن قوة الوسائل المادية.. بل تسبقها، كما سبقت كلمة - من قوة - كلمة - ومن رباط الخيل - فالخيل أثناء الحرب أداة هامة للتحرك السريع والمباغتة والارتفاع فوق الهامات والرؤوس.. ولعل الخيل كأداة وآلة حربٍ سيكون لها شأنها الدائم مهما تطورت عجلة التسليح كوسيلة للتدمير والقتل الشامل عن بعد، لأنها أي - عجلة التسليح - ستتوقف يومًا ما لسبب أو لآخر.. وسيعود لزمان الفروسية والفرسان ألقه الخاص، وسيعود السلاح الأبيض النزيه، الذي يجمع بين المقاتلين في نزالٍ شريف يكسب فيه أحد الطرفين المعركة بما استبسل به.. أما كلمة "ترهبون عدو الله" فهي الدلالة الأولى والخطوة الأسبق إلى السلام وتجنب الحرب

واختصار ويلاتهما، فإذا ملأت الرهبة قلوب الأعداء وسيطر
الخوف على كيانهم حسبوا للحرب ألف حسابٍ قبل البدء بها.

﴿وأجلب عليهم بنخيلك﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ
أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ
عَلَيَّ لَنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَسِبَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا
(٦٢) قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً
مَوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِرُ مِنْهُ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ
عَلَيْهِمْ بِنَخِيلِكَ وَرَجَلِكُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ
وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ
عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥)﴾ [الإسراء].

إنه أصل الصراع.. وبداية الاحتدام.. يوم خلق الله آدم وأمر
الملائكة أن تسجد له فسجدت، إلا إبليس، استكبر وتمنّع
وعصى وردّ الأمر على الأمر، ولم يكتفِ بذلك، بل توعدّ وهدّد
هذا المكرم وذريته بالاستيلاء عليهم واحتوائهم وامتلاك زمام
أمورهم وجعلها في قبضة يده، وتشاء إرادة الله أن يطلق لهذا

الغويّ المبين، العُور المغرور، عنان المحاولة مع بني الإنسان ليكون جزاءه وجزاء من يتبعه جهنّم، وتبدأ المعركة بحشد كل وسائل الغواية والاحتواء والوعود الخادعة الكاذبة، بقصد الاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول، إنها المعركة المصيرية اليومية الصاخبة، يصورها القرآن معركة تستخدم فيها الأصوات والخيال والرجال، يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة، أو يستدرجهم للفتح المنصوب والمكيدة المدبرة. فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل وأحاط بهم المقاتلون، أعاذنا الله من خيل الشيطان ورجاله، أما المشاركة في الأموال والأولاد، فتتمثل في كثير من السلوكيات الجاهلية الخاطئة، مثل أن يجعلوا في أموالهم نصيباً للآلهة المزعومة، وفي أولادهم ندوراً للآلهة أو عبيداً لها، كعبد اللات وعبد مناة وعبد الحارث، كما تتمثل في كل مال يجبي من حرام، أو يتصرف فيه بغير حق، أو ينفق في إثم، وفي كل ولد يجبيء من حرام، ففي كل ذلك شراكة مع الشيطان، أما الوعود المغرية والأمني التي يمّني بها إبليس أتباعه، فتتمثل بالوعد بالإفلات من العقوبة والقصاص، والوعد

بالغنى والثراء من الأسباب الحرام، والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل
 المتلوية والأساليب الخسيسة، ولعل أشد الوعود إغراءً، الوعد
 بالعفو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة، وهي ثغرة يدخل منها
 الشيطان على كثير من القلوب التي يعزّ عليه جرّها إلى المجاهرة
 بالمعصية، فيزيّن لها الخطيئة والإثم مع التلويح بسعة الرحمة الإلهية
 وشمول العفو والمغفرة، ولكن رحمة الله استثنت عبادًا ليس
 للشيطان عليهم سلطان، عباد الله، بل عباد الله، نسبهم إليه
 بقوله "عبادي" قد أشرق نور الله في عقولهم وقلوبهم،
 فاستمسكوا بهديه والتزموا صراطه المستقيم، فما امتدت يد
 الغواية إليهم.

﴿فما أوجفتم عليه من خيل﴾

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ
 وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦].

أوجفتهم.. أي حملتم خيولكم وإبلكم على السير السريع إلى القتال، والركاب : الإبل التي يسافر عليها، ولا مفرد لها من لفظها، وللآية قصةٌ نسردها باختصارٍ..

كان أول غدرٍ ليهود يثرب بني النضير الذين صالحهم رسول الله بعد هجرته إلى المدينة النورة واستقراره فيها، على أن يبقوا على الحياد، وأن لا يكونوا معه ولا عليه، ولكن بعد هزيمة المسلمين في غزوة أحد حالفوا قريش ضده، فحاصروهم، حتى صالحوه على الجلاء من المدينة، وجلا أكثرهم إلى الشام، ولحقت طائفة منهم بخيبر، وكان ذلك أول جلاء لهم بعد أن ألقى الله في قلوبهم الرعب والخوف الشديد، مما أضعف قوتهم وسلبهم الطمأنينة والأمن، وهكذا افتتحت حصونهم التي تبعد عن المدينة قرابة ميلين، صلحًا دون حرب أو قتال، وغنم رسول الله أموالهم التي تركوها، وما يناله المسلمون من عدوهم عن طريق الحرب يسمى غنيمَةً، وما يأخذونه دون قتال يسمى فيئًا، وفي الآية ذكرٌ لأموال بني النضير التي أفاء الله على رسوله منهم، حيث لم تُحمل الخيول ولا الإبل على السير السريع إلى القتال.

﴿الصفات الجياد﴾

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فِطْفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)﴾ [ص].

الني سليمان عليه السلام يتفقد آتته الحربية الجميلة، فيستعرض جياده السراع، الصفات التي تقف عند وقوفها على ثلاث قوائم وعلى طرف حافر الرابعة، وهذا الوقوف من علامات السكون والثقة والفراهة.. والجياد حيوانات رشيقة، جيدة الركض، هادئة رزينة أليفة مألوفة، تستأثر بحب مالكيها وتبادلهم الحب والوفاء، نبيلة الطباع، شديدة الذكاء، قوية الذاكرة تتعرف على الأشخاص والاتجاهات والطرق والأماكن، ولقد أكّدت الدراسات المتأخرة في علم سلوك الحيوان أن مسح سيقان الخيل وأعناقها يلعب دوراً مهماً في تطمينها وإشعارها بالود والمحبة، ذلك أنها أكثر مناطق جسم الحصان حساسية للمس، وكأني

بالنبي سليمان عليه السلام قد علم هذه المعلومة منذ آلاف
السنين فطفق مسحًا بالسوق والأعناق.

﴿والعاديات ضبْحًا﴾

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ
ضُبْحًا (٣) فَأَتَرْنَ بِهِ نَفْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا
(٥)﴾ [العاديات].

الخيال حين تذكر.. فلا بد أن يقترن ذكرها غالبًا مع الحرب، فهي
العدة الضرورية لها، يصار إلى إعدادها جيدًا في حالة السلم بما
في ذلك من تدريبٍ لفرسانها وتعليمهم فن الفروسية والقتال.
وفي آخر ذكرٍ تسلسلي للخيال في كتاب الله، وفي سورة
العاديات، تتجلى الصورة الحركية المفعمة بالصوت والملئية
بحيثيات الزمان والمكان والموشاة بجماليات التفاصيل الصغيرة..
صورة خيل المعركة، وهي تعدو ضابحة بأصواتها المعروفة حين
تجري.. تفرع الصخر والحصى بحوافرها بشدّة حتى توري الشرر
منها.. تُغيّر في الصباح الباكر حتى تفاجئ العدو وتباغته.. وتثير
النقع والغبار غير هيابة في الدخول إلى وسط صفوف الأعداء

لتوقع بينهم الاضطراب والفوضى والبلبلة.. هي صورة محببة إلى قلوب الناس جميعًا وبخاصة الفرسان الشجعان الذين يعرفون قيمة النصر أو الهزيمة، والمجد أو الصغار.

وفي الآية أقسم الله تعالى بالعاديات، بخيل المعركة، لينبه الإنسان إلى صفة مذمومة، تلتصق به من حيث يدري أو لا يدري، ألا وهي كونه يجحد فضل الله عليه، فيعدد المصائب والأحزان، وينسى أو يتناسى نعم الله الكثيرة، كنوّد لربه، إنه يدخل معترك الحياة ويخوض غمارها ومعاركها، متصارعًا مع الابتلاءات والاختبارات، ولكن قد هياه الله لهذا النزال، مدججًا بكل ما حباه من قدراتٍ، وطاقاتٍ، وإمكانياتٍ، وقوى، وألوان لا حصر لها من النعم، والمنح، ناسيًا غافلاً، أو جاحدًا منكرًا - إلا من رحم ربي -.

البغال

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

إن التسلسل الذي ورد فيه ذكر هذه الحيوانات في هذه الآية.. الخيل والبغال والحمير..

هو تسلسل منطقي يجعل البغال في وسطٍ بين الاثنين الباقيين، ذلك أنه نتاج خليط بين الحصان والحمار.. وثلاثتها آلات ركوبٍ، وسائل نقلٍ يركبها الناس ويحملون عليها رحالهم وأمتعتهم وأثقالهم، يتفاخرون بامتلاكها ويتنافسون بأصالة سلالاتها وألوانها الجميلة، ويتبارون بالاعتناء بها، وتختتم الآية بإطلاق قدرة الله على الخلق، خلق ما نعلم وما لا نعلم.

ويأتي فعل "ويخلق" بصيغة المضارع لتؤكد حقيقة استمرارية فعل الخلق دائماً وأبداً.

الأنعام

سورة الأنعام..

هي إحدى السور الطويلة التي نزلت على الرسول كاملة، ويقال أن الرسول صلى الله عليه وسلم خرَّ ساجدًا من رهبة ما احتوت عليه من أسرار الخلق والخالق والمخلوقات.

الأنعام.. اسم مستمد من النعمة..

وهي اللفظة الأكثر ذكرًا من بين أسماء الحيوانات في القرآن، إذ وردت "٣٣" مرة في اشتقاقاتها المختلفة، أنعامًا، أنعامكم، النعم، الأنعام، أنعامهم، وهي تضمّ الحيوانات الأكثر أهمية وتأثيرًا في حياة الإنسان لشدة قربها والتصاقها بحياته، وهي الإبل والبقر والغنم (الضأن) والماعز،

حيواناتٌ أربعة قد رافقته منذ بدء البشرية، لتمامج بأحواله المعاشية، فتكون غذاءه لحمًا ولبنًا، وأداة ركوبه وتنقله، وأدوات حله وترحاله ظعنًا وإقامة.

﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَةَ الْأَنْعَامِ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بِهِمَةَ الْأَنْعَامِ
إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ
يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

في أول آية، افتتحت سورة المائدة بالأمر بالوفاء بالعقود، والعقود ضوابطٌ والتزاماتٌ وروابطٌ تهيمن على شبكة العلاقات التي تربط بين طرفين، تنظّم حقوقهم وواجباتهم، وتضمن أداءها والوفاء بها، لا تخضع لرغبات الطامعين أو العابثين أو ذوي المصالح، ولا تقبل بالتجاوز والاعتداء على الحدود، ضوابط يسميها الله العقود، ويأمر الذين آمنوا به أن يوفوا بها، وفي هذا الأمر، كما في كل أمرٍ قرآني سبق بنداء "يا أيها الذين آمنوا"، إبرازٌ لشأن أهم العقود على الإطلاق ألا وهو عقد الإيمان، فالذين آمنوا، يقتضيهم عقد الإيمان أن يتلقوا التحريم والتحليل من الله وحده دون غيره، ومقتضى هذا الإحلال من الله، ومقتضى أحكامه وحدوده، صار حلالاً للمؤمنين ومباحاً أن يأكلوا من كل ما يدخل تحت مدلول "بهيمة الأنعام" من الذبائح والصيد، إلا ما

يتلى تحريمه، حرمة وقتية أو مكانية، أو حرمة مطلقة في أي مكان وفي أي زمان، مما يذكر متفرقاً في كتاب الله، ليوضح في حينه.

﴿ومن الأنعام حمولة﴾

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

هذه الأنعام عديدة الأنواع والتصانيف.. حمولة عالية القوائم، بعيدة عن الأرض كالإبل والبقر، قادرة على حمل المتاع والأنتقال ونقلهما.. وفرشاً صغيرة الأجسام قريبة من الأرض كالضأن والمعز، يفترش الإنسان جلودها ويبنى منها الخيام.. خلقها جميعها.. كبيرها وصغيرها.. لتكون حلالاً ومتاعاً، يأكل منها الإنسان وفق أمر الله وهداه، فهو صاحب الكلمة العليا فيما يحلّ وما يحرم مما خلق.. إن الله يحكم ما يريد.. والحلال والحرام لا يتبعان الأهواء والآراء البشرية التي تقتفي أثر وخطوات الشيطان، العدو المبين، الذي أعلن منذ الأزل عداوته الصريحة

لابن آدم، خصوصاً، فيما يتعلّق بعلاقته مع الأنعام المخلوقات التي سخرها الله للإنسان.

﴿آذان الأنعام﴾

﴿وَلَا ضَلَّانَهُمْ وَلَا مَنِّينَهُمْ وَلَا أَمْرَنَّهُمْ فَلَيْتَكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ
وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ
دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

ما السر في آذان الأنعام؟؟ ولم استخدمها الشيطان في سبيل فرض سطوته على ابن آدم.. إنه الشيطان.. عدونا الأزلي المبين.. تمرّد على أمر الله مزهوّاً بخلقته، مستكبراً على خلقه آدم، فاستحقّ اللعنة والطرْد، ولأن المخالف العاصي لا يرضيه إلا أن يتكاثر أمثاله وتزداد أعدادهم، فقد توعدّ أن يستميل إلى الضلال والأمانى الكاذبة أعداداً وأعداد، يغويهم ويدفعهم في مسالك العصيان والتمرّد والمخالفة.. من تلك المسالك.. تمزيق آذان بعض الأنعام ليصبح ركوبها وأكلها محرّماً، دون أن يحرمها الله، ومنها أيضاً تغيير خلق الله بتغيير شكل الأجساد في الحيوان أو في الإنسان، من غير حاجة، وتحت مسمّيات التجميل

والتزيين وشواذّ الهندسة الوراثية، مسمّيات ما أنزل الله بها من سلطان.. ما هي إلا أهواء يستثيرها الشيطان ويحفرها لتضلّ وتتحرف، ثم لا يكون من مصير أصحابها إلا الخسران المبين على كل صعيد.

﴿يفترون على الله الكذب﴾

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلذَّكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)﴾ [الأنعام].

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أُمَ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ

نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ
 الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
 أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ
 اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) ﴿[الأنعام].

عاداتٌ جاهلية كانت سائدة في المجتمع العربي.. عادات تتمركز
 حول الذنور والذبائح.. وتحمل في ثناياها عقائد ضالة غريبة..
 صنوف من الأنعام كانوا يطلقونها لآهنتهم بشروط خاصة، منتزعة
 من أوهامٍ وخرافاتٍ متراكمة في ظلمات العقل الجاهلي، البحيرة
 والسائبة والوصيلة والحامي.. البحيرة الناقة التي تشق أذنها، وكان
 أهل الجاهلية إذا أنتجت نافتهم خمسة أبطن آخرها ذكراً، مجروا
 أذنها وحرموها وامتنعوا من ركوبها ونحرها، ولم تطرد عن ماء ولم
 تمنع عن مرعى، وإذا لقيها المتعب لم يركبها، والسائبة المخلاة
 وهي المسيبية، وكانوا إذا نذر الرجل لقدمٍ من سفر، أو برءٍ من
 مرض، أو غير ذلك، قال : ناقتي سائبة، فكانت كالبحيرة في
 التحريم والتخلية، أما الوصيلة فإن بعض أهل اللغة ذكر أنها

الأنتى من الغنم إذا ولدت مع ذكر، قالوا : وصلت أخاها فلم
يذبحوها : وقال بعضهم : كانت الشاة إذا ولدت أنتى فهي لهم،
وإذا ولدت ذكراً ذبحوه لأهنتهم، وإذا ولدت ذكراً وأنتى قالوا :
وصلت أخاها فلم يذبحوه، أما الحامي الفحل من الإبل إذا
نتجت من صلبه عشرة أبطن، قالوا : حمي ظهره فلا يحمل عليه،
ولا يمنع من ماء ولا مرعى.. وهناك روايات أخرى عن تعريف
هذه الأنواع من الطقوس لا تختلف على هذا المنحى من
الضلالة.. ومن بقية الضلالات.. أنهم يعمدون إلى قسم من
الزروع ومن الأنعام، فيجعلونها نصيين.. نصيب لله ونصيب
لأهنتهم.. ولم يكتفوا بقسمة هي الشرك بعينه، بل تجاوزوها إلى
الجور والحيف على ما جعلوه نصيباً لله، لينقصوه أحياناً،
ويضمّوه إلى نصيب الشركاء.. فيا للاجترأ والسخف.. تعقبها
الضلالة الثانية.. التي أفرزتها تقاليدهم العمياء فقاموا بعزل قسم
من الأنعام والحرف ليحرموها وفقاً على الآلهة وسدنتها فقط..
وعزل قسم آخر ليحرموا ظهورها على الركوب.. وقسم ثالث من
الأنعام لا يذكرون اسم الله عليها حين ركوبها أو ذبحها، بينما

يركبون قسماً آخر، ولكن في غير وقت الحج لأن فيه ذكر الله.. وتتوالى ضلالاتهم وتزداد وتعمق ليصل إلى بعض الأجنة في بطون الأنعام، لتكون خالصة للذكور، حلال لهم، محرمة على الإناث، إلا في حال كونها ميتة.. هو ذا التحريم الذي ابتدعته الجاهلية في أنعامها، في ذكورها أو إناثها أو ما اشتملت عليه أرحام الإناث، وهنا ألفت النظر إلى أن "الزوج" كلمة لا تعني اثنين من الأشياء، بل الزوج واحد يُشترط له أن يكون مع غيره من جنسه، تماماً مثل كلمة توأم التي تعني طفلاً مع آخر ليكونا توأمين، وتوائم إذا كان العدد أكثر من اثنين، ولأن أنواع الأنعام أربعة فقد ناسب ذكر رقم ثمانية أزواج من الضأن والمعز والإبل والبقر.. إنها كما نرى انحرافات.. وأوهام.. وخرافات.. كان الهوى الفاسد الغاشم يجعل منها تقاليد مجتمعية، وقيود صارمة، يزرع تحت كاهلها الناس.. هي محض افتراء ظالم واجتراء سافر.. يجرمون بأهوائهم ويحللون ما يشاؤون.. متناسين أن الله هو الذي خلق هذه الأنعام، وسخرها لكل الناس دون استثناء.. وأنه هو صاحب الحق الوحيد الأوحده في تحريم وتحليل ما يشاء.

﴿بل هم أضل﴾

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

كالأنعام !!؟

بلى.. كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً..

هو التشبيه الذي ألصقه القرآن الكريم بمن يملكون القلوب والعقول، ثم لا يستخدمونها للفهم والفقهاء، ومن يملكون الأعين، ثم لا يبصرون بها الحقائق والآيات، ومن يملكون الآذان، ثم لا ينصتون بها إلى وعظ مفيد أو علم نافع..

غافلون، ساهون، لاهون، انحطوا بحواسهم إلى دركاتٍ أحطّ من حيوانية الحيوانات التي تستخدم جوارحها فيما ينفع عيشها البهيمي.

﴿مما يأكل الناس والأنعام﴾

﴿إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ٥٤].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا بِهِنَهُمْ لِيَتَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠)﴾ [الفرقان].

مثل الحياة الدنيا.. مثل* يضربه القرآن مرتين.. الأولى في سورة يونس والثانية في الكهف، تقول آية سورة الكهف ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، والآيتان تشبهان الحياة الدنيا بما أنزله الله من السماء، اختلط به نبات الأرض، تشرّبه وامتصه في عروقه وخلاياه، فما وازدهر وتحول إلى جنّات خضراء عامرة بالثمار وبالجمال، بثمرات نبات يصلح لغذاء الناس فيأكلون منه، وبزرعٍ آخر يصلح لغذاء الحيوان فيرعوا أنعامهم لتأمين طعامهم من لحومها وألبانها، والنبات الآخر يملأ جنّات الأرض أزهارًا وعطرًا وأفنانًا من ظلٍ وأدواحًا من نضرةٍ وخضرةٍ وزينة، حتى إذا ظنّ الناس أنهم قادرون على التملك والتمكّن من الرغد والرفاهية، بطروا ونسوا فضلَ الله الأول، والحلقة الأهم الأولى في سلسلة النعيم والنعم، ألا وهي إنزال الماء من السماء على الأرض الجرز الغليظة التي لا نبات فيها، وأصل كلمة جرز من قولهم "ناقة جرز" إذا كانت تأكل كلّ شيء تجده، و"سيف

جرار" إذا كان لا يبقى شيئاً إلا قطعه، وبنزول الماء يخرج الزرع والنبات، وعندها يأتي أمر الله بتحول كل ذلك إلى هشيمٍ تذروه الرياح، حصيدٍ جافٍ خاوٍ، هباءٍ منثور لا قيمة له، فكأن الأرض لم تك على أعلى درجات الجمال والغناء قبل ذلك، كأنها لم تغن بالأمس، فجأة يصير كل شيءٍ إلى زوال وفناء ونهاية.. إنها آياتٌ لأصحاب العقول، ودعوة إلى التفكر.. لقومٍ يتفكرون.. ويبصرون ويتبصرون.. فلنتفكر.. والمثل واضحٌ جليٌّ أماننا.. هو مثل الحياة الدنيا.. بتنوع صورها وألوانها.. ولكن إلى زوالٍ سريعٍ.. سريعٍ.

﴿والأنعام خلقها﴾

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِسِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧)﴾ [النحل].

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ

أَصَوَافِهَا وَأُوبَارَهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى
حِينَ ﴿[النحل: ٨٠].

﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا
مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ
(٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ
(٧٣)﴾ [يس].

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ
(٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ
وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٨٠].

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ
مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ
إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا
لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤)﴾ [الزخرف].

الأنعام.. إبلٌ وبقرةٌ وضأنٌ وماعز.. من أصوافها وجلودها
وأوبارها نستمدّ الدفء إذا صتّعنا منه اللباس أو البسط، نحتمي
بها ونسكن تحتها إذا جعلناها خيامًا، نغتذي بلحومها وألبانها،

ونستخدمها ركوبًا يحملنا مع أمتعتنا وزادنا حيث نشاء، قد نقيم
مهرجانات سباق الإبل المهجن في مواسم السياحة والرياضات
الخاصة، وقد نعتمد على بعض منتجاتها في تطوير مرافق
الصناعة الداخلية والتجارة الغذائية المتنوعة.. هي منافع شتى
تداولها ونعتاش بها، فتدرّ ربحًا وتحقق رغدًا وتكون مصدر أرزاق
الكثيرين والكثيرين.. ويُجتم هذا العرض الرباني الكريم المتكرر في
صور عدّة، بقوله جلّ وعلا "أفلا يشكرون" .. فهل يحتاج المتنعّم
بكل هذه النعم إلى من يذكره بشكر المنعم؟! إذا هي دعوة
صريحة دائمة متتالية تطالب الإنسان بمعرفة قيمة وأهمية وجود
الأشياء من حوله، مما يحمله على مداومة الذكر والتذكر من
خلال الدعاء العام حينًا، والمخصوص بصيغة معينة حينًا آخر..
وفي الآيات الأخيرة.. وبعد أن منّ الله على عباده أنه سخّر
الأرض مهادًا مستقرة وجعل فيها سبلاً متاحة توصل بين البلدان
والأصقاع، فما كان من طريقٍ بحري كانت السفن أداة ركوبٍ
تمخر عباب الماء، محفوفة بعناية الرحمن.. وما كان من طريقٍ بريٍ
كان من الأنعام، الإبل، ما يؤدي هذه المهمة، فإذا امتطى

المسافر ظهر ما يركب، وانطلق إلى غايته، كان عليه أن يذكر نعمة الرب الذي يدير ويرعى شؤون عباده، وأن يرافق هذا التذکر تسبیحٌ وتقديسٌ، ودعاءٌ شكرٌ وتعظيمٌ وإظهارٌ للافتقار والعجز "سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون" .. وما ذاك إلا لاستجماع القصد الصحيح وتوجيهه بوصلة التحرك الديوي باتجاهه وحده ربنا، ابتغاء رضوانه.

﴿لکم فی الأنعام.. لعبرة﴾

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].
 ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)﴾ [المؤمنون].

عبرة يؤكّد عليها القرآن بلام التأكيد، يخبرنا وهو أصدق الحديث، أن لنا في الأنعام لعبرة، فلنبحث عنها بغية الاعتبار بها، وقد حُدّد تواجدُها في الأنعام، التي أطلنا الحديث عنها بتفاصيل كثيرة متنوعة تتعلّق بفوائدها وتسخيرها لنا وأنواعها،

لكن الآية هنا تلفت النظر إلى الكيفية التي يتم بها تكوين اللبن في ضروعها، لقد جعل اللبن الخالص السائغ للشاربين يخرج من بين الفرث (وهو فضلات الطعام) وبين الدم، وهذا ما كشف عنه علم وظائف الأعضاء في الأجسام من أن الجهاز الهضمي للحيوان يقوم بمضم الطعام وامتصاص الصالح منه عبر الدم الذي يجري في الأوعية الدموية، ومن هذا الدم ما يصل إلى ضرع الحيوان حيث تبدأ الغدد اللبنية في هذا الضرع تستخلص منه العناصر اللازمة لتكوين اللبن، ثم تنصبّ عليه عصارات خاصة تحيله إلى لبن له مذاقه ولونه الخاص، ويتمّ ضجّ حوالي خمسمائة لتر من الدم إلى الغدد اللبنية في ضرع الأنعام الكبيرة كالإبل والبقر لتوفير المواد اللازمة من البروتينات والكربوهيدرات والدهون والعناصر الفلزية وغير الفلزية والفيتامينات والهرمونات اللازمة لرضعة واحدة أو لحلبة واحدة كاملة يستخلصها الدم من بقايا الطعام.

وهكذا يخرج هذا اللبن من بين الفرث والدم سائغاً لذيذاً فسبحان الله الذي يجعل غذاء الحيوان من حشائش وحبوب

تتحول إلى لبن هو خير غذاء للإنسان والحيوان، غني بكل ما يحتاج إليه الجسم من عناصر ضرورية لحياته وصحته.

﴿واتقوا الذي أمدكم﴾

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤)﴾ [الشعراء].

التقوى هي ملاك الأمر كله، الغاية المنشودة من اتباع المنهج الرباني، والأساس المتين الذي تقوم عليه الرسالات السماوية، هي المطلوب الأول ابتداءً والأخير انتهاءً على مدار ساعات ودقائق وثمان عمر الإنسان، ويذكر القرآن بين يدي هذه القضية ملابساتٍ تستدعيها وتؤسس لها، فيذكر الناس أن الله المنعم قد أمدهم بما يعلمون من نعمٍ بين أيديهم، يعلمونها ويعيشون بها وفيها، يُجمل أولاً "أمدكم بما تعلمون" ليترك للعقل البشري فرصة استقصاء نعمه التي يتقلب بين ألوانها فهو يعلمها علم اليقين، ثم يفصل بعضها على سبيل الذكر لا الحصر، الأنعام، البنين، الجنات، والعيون، فهل ترانا نلمح بترتيبها على هذا النحو سرّاً من الأسرار؟! كأن تكون الأنعام بمنافعها عامة لكل الناس

يأخذ كل إنسان بنصيبه منها، أما البنين فنعمة تعطى أناسًا
 وتُحرم آخرين، والجنات بخصوصية تملكها تكون لقلة من الأغنياء
 يتمتعون بها، أما عيون الماء فتأتي في المرتبة الأخيرة من الندرة..
 أم أن الأنعام والبنين نعمتين أكثر التصاقًا وتأثيرًا بحياة الناس
 وأشد احتياجًا لها وضرورة لتواجدها، فسبق ذكرها ذكر نعمتي
 الجنات والعيون اللتين تُكملان وتحمّلان وتضيفان المتعة والجمال
 والنضارة.. أم لعلنا نجد هناك سرًا آخر أو اجتهادًا مختلفًا قد
 يستنبطه قارئ العزیز.. فليستلهم الكلمات.

﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾

﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا
 فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ
 بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١)
 وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)﴾
 [النازعات].

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا
 (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧)

وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠)
وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) ﴿عبس﴾.

ربُّ خالقٍ عظيمٍ.. خلق السماء فجعلها عالية البناء، واسعة الأرجاء، ليلها مظلم حالك، ونهارها مشرق وضياء، كما خلق الأرض بجبالها الراسيات وأنهارها الجاريات، ينابيعها الكثيرة ومراعيتها الوفيرة.

أنزل الماء عليها من السماء، فأنبت لنا من أنواع النبات الكثير منها ما ينتفع به الإنسان، من حبوب وفواكه وخضراوات وزيتون ونخل وغير ذلك، ومنها ما تأكل منه البهائم، من أعشاب وحشائش وأعلاف وغير ذلك..

وفي الآيات تذكير وتنبيه وإيضاح..

إنه الكون المسخَّر بما فيه خدمة، لكل الناس.. ابتداءً، وللأنعام - المسخَّرة للناس بدورها - انتهاءً.

آياتٌ وآياتٌ تدقُّ كالأجراس في مسامعنا دائماً وأبداً، تؤكد لنا باستمرار ديمومة حجم وشكل ونوع ودور النعمة في حياة المرء،
فهل ترانا نسمع ونعقل !!؟؟

﴿مختلف ألوانه﴾

﴿وَمَنْ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

أناسٌ.. ودوابٌ.. وأنعامٌ.. مختلفٌ ألوانها.. عديدة أصنافها، وأشكالها، وألوانها.

تتمايز جماعاتها عن بعضها البعض، وتتمايز الأفراد في كل جماعة منها، وتتمايز حالاتٌ وأطوارٌ تنتاب الكائن الفرد عبر سني عمره، كل ذلك في بديع صنع خالقٍ عظيمٍ لا يكاد يقارب معرفته إلا عالمٌ تخصص في العلوم وأدرك أسرار المخلوقات، فتملكته الخشية الحقة من الله، ليصير بذلك العلم وحده، وبتأكيد "إنما"، بوابة لخشية الله.

أفلا نقرأ في الآية ترغيبًا واضحًا بالعلم، وحثًا مباشرًا عليه، وحثًا لطيفًا إلى طلبه وحيازته!!؟؟

أفلا نطلبه ونتوخاه ونسعى إليه طاعة لله ورغبة في الوصول إلى مرتبة الخشية!!؟؟.

﴿يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

تذكر الآية الجزآين.. جزاء المؤمنين الذين قرنوا إيمانهم القلبي والعقلي، الشعوري والفكري، بالأعمال الصالحة على مدار ساعات اليوم، فما تركوا شأنًا من شؤون دنياهم إلا وجعلوه مطية صالحة لآخرتهم، أصلحوا بذلك دنياهم، وأرسوا قواعدها على أسس سليمة متينة، أقاموا فيها منهج الخير وشريعة الحق فكسبوا خيري الدنيا والآخرة، وآلوا في يوم القيامة إلى جناتٍ تجري من تحتها الأنهار.. أما الذين كفروا فقد عابثوا الحياة وعافروها في بهيمية منحطّة مارسوها في أدنى مستوياتها، مكتفين بمتاعها الزائل ومباهجها الفانية، لا تقودهم غايات سامية ولا ترقى بهم أهداف نبيلة، يكتفون من العيش بأسباب مادية تليّ غرائز الجسد الهالك وتثري متعه بأنواع الملذات الحسية، فتكاد توصلهم إلى مرتبة البهائم، ولعل البيان القرآني قد شبّه أكل

هؤلاء بأكل الأنعام خاصة دون بقية الحيوانات أو عمومها ليدخل في روعنا أن الأنعام إنما تأكل لينتفع الناس بلحمها ولبنها، أما هم فيأكلون كما تأكل الأنعام من رزق الله في أرضه دون جهدٍ تبذله في استنباته أو زرعه أو نمائه، ثم لا يكون لهم من الأثر الصالح أو الطيب ما يخلفونه وراءهم، بل على العكس من ذلك.. فسادٌ وإفسادٌ ومفاسدة.

وأنزل لكم من الأنعام

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

أنزل لكم من الأنعام؟! ما المقصود من هذه العبارة؟ من أين أنزلها.. وكيف أنزلها؟!..

في كتب التفاسير وجوه لهذه الجملة، الأول : أن قضاء الله وتقديره وحكمه موصوفٌ بالنزول من السماء، لأنه كتب في اللوح المحفوظ عن كل كائن يكون.. الثاني : أن الأنعام تعيش على النبات، والنبات لا ينمو إلا بالماء المنزل من السماء، فصار التقدير كأنه أنزلها، وهذا كقوله "قد أنزلنا عليكم لباسًا" ولم ينزل اللباس نفسه، ولكن أنزل الماء الذي هو سبب القطن والكتان والصوف.. الثالث : أنه خلقها في الجنة ثم أنزلها إلى الأرض، وهذا التفسير يلتقي مع أساطير الهندوس التي سبق ذكرها في الكتاب.

وبما أن القرآن قد حدد أنواع الأنعام الأربعة في آية سابقة، فقد ناسب أن تذكر ثمانية أزواج منها، وهو أكبر الأعداد الزوجية في رتبة الآحاد، أما الآية الثانية فتدرج في ذكر عملية الخلق ابتداءً من خلق الكون، فالله فاطر السموات والأرض، ثم تنبري للتفاصيل في خلق الأحياء في وحدة تكوينية، تدل على وحدة الأسلوب والمشية، والله الذي جعلكم أنتم والأنعام تتكاثرون وفق قاعدة الزوجية، قاعدة تنتشرون من خلالها فوق سطح

الأرض، هو الذي تفرّد دون خلقه جميعاً، فليس من شيء يماثله، استحالة مطلقة، فليس كمثلته شيء.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُوكَ رَجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظَّمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠)﴾ [الحج].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

الحج.. عبادة المسلمين.. من أسلم وجهه من الناس إلى الله، عبادة من لدن إبراهيم، إذ أمره الله تعالى بعد إتمام بناء البيت

الحرام أن يؤدّن في الناس بالحج ليأتوا من كل أصقاع العالم، وكلمة "فج عميق" تناسب كون الأرض كرة، فالوصول إلى نقطة على سطحها من باقي نقاط السطح تحديداً، يمثل الارتفاع من عمق فراغيّ منحنيّ متفاوت العمق، وها هم الحجاج قادمون، راجلين أو راكبين، ليشهدوا منافع لهم، وهي كثيرة، فالحج موسم تجارة ومعرض إنتاج وسوق عالمية تقام في كل عام، كما هو موسم عبادة جماعية يشترك فيها ملايين البشر، ومؤتمر اجتماع وتعارف وتنسيق وتعاون، إنه الفريضة التي تلتقي خلالها دنيا الناس وآخرتهم، عند قبلة واحدة يتوجهون إليها تحت راية عقيدة واحدة تختفي في ظلها فوارق الأجناس، والألوان، والأوطان، والمذاهب، ويشرح البيان الإلهي مناسك هذه العبادة وشعائرها، ومحورها الأهمّ ألا وهو ذكر الله في أيام معلومات من عشر ذي الحجة، وما الغاية الأصيلة من هذه الشعائر التي تمثل رموزاً تعبيريةً للتوجه إلى رب البيت وطاعته، وتحمل في طياتها ذكريات قديمة من عهد النبي إبراهيم، إلا التقوى وتعظيم حرّمات الله كما أمر بها الله، إذ كان المشركون يحرمون ويحلبون ما شاءت لهم

عقولهم الضالة، فيحرمون ذبح بعض الأنعام كالبحيرة والوصيلة وغيرها.. ولكن الله أحل الأنعام تُتخذ هديًا ينحر في نهاية الإحرام، ينتفع صاحبها بركوبها وشرب ألبانها حتى تبلغ محلها - مكان حلها البيت العتيق - ثم تنحر هناك ليأكل منها، ويطعم البائس الفقير، وأمر بذكر اسم الله عند نحر الذبائح، إذ أن ذكر اسم الله لا أسماء الآلهة المدعاة على الذبيحة أهم ما يظهر في عملية النحر، وكأنه هو المقصود من النحر، لا النحر ذاته، والنحر ذكرى لفداء النبي إسماعيل الذي ضرب هو وأبوه النبي إبراهيم أروع مثل في طاعة الله والامتثال لأمره، وأمر أصحاب الذبيحة بالأكل منها يوم النحر هو أمر للإباحة والاستحباب، أما الأمر بإطعام البائس الفقير منها فهو أمرٌ للوجوب، ولعل المقصود من أكل صاحبها منها أن يشعر الفقراء أنها طيبة كريمة، وبالنحر ينتهي الإحرام، فيسارع الحاج إلى إزالة أدرانٍ وأوساخٍ علقَت به طيلة أيام، ثم يوفي نذره من الذبائح - غير الهدى الذي هو ركنٌ من أركان الحج - ويذكر القرآن أن هذه الذبائح شعيرة معروفة في شتى الأمم المختلفة، فلكل أمة منسك، ولكن

الإسلام يحرم ما أهّل لغير الله به، ويوجهها وجهتها الصحيحة إلى الله وحده دون سواه.

﴿لكم فيها خير﴾

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَيَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾ [الحج].

هنا يخص القرآن البدن بالذكر لأنها أعظم الهدي، والبدن جمع بدنة وهي الناقة أو البقرة، ولضخامتها تجزئ في الحج عن ثمانية أشخاص، جعلها الله من شعائره، وجعل فيها خيراً كثيراً، في حياتها تركب وتحلب، وإن ذبحت تهدى وتُطعم، لذا فقد أوجب أن يُذكر اسم الله عليها ويُتغى بها وجهه، تُحَضَّرُ البدن للذبح بصف أقدامها، والإبل تنحر قائمة على ثلاث معقولة الرجل الرابعة، فإذا اطمأنت على الأرض بموتها أكل منها أصحابها

استحباباً، وأطعموا الفقير القانع الذي لا يسأل، والفقير المعتر الذي يتعرض للسؤال، وشكروا الله على تسخيرها لهم، ومحصوا توجههم إليه بالتقوى، ولم يقوموا بما قام به مشركو قريش من تلطيف أوثانهم وآلهتهم بدماء أضحياتهم على طريقة الشرك المنحرفة.

وتختم الآية مقولتها بعلّة التسخير ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٥٣﴾ حاملّة البشرى للمحسنين.

إذا فلنعمل على أن نكون منهم،
لعلنا نكون منهم.

الإبل

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧].

الإبل.. الجمل.. منها ما لا سنام له كجمل اللاما، ومنها بسنام واحد هو الجمل العربي، ومنها بسنامين وهو الجمل الآسيوي.. جمعها القرآن تحت مسمى الأنعام لما فيها من نِعَمٍ جَمَّة.

والإبل تتميز عن جميع الأنعام بميزات بدنية تشريحية ووظيفية لا تتوافر لغيرها.. إنها بحق سفينة الصحراء، أصلح الوسائل للسفر والحمل والتنقل عبر الأراضي الصحراوية.. ذلك أنه يستطيع قطع مسافة تصل إلى خمسين ميلاً في اليوم، مع حمل أكثر من نصف طن من المؤن والركّاب دون طعام وشراب لعدة أيام متتالية.. ولكم أوجز بعضاً من صفاته المتنوعة المتميزة..

- ضخامة جسمه وارتفاع القوائم وطول العنق تمكنه من سرعة الحركة واتساع مجال الرؤية.

-أنفه ذو منحارين لهما القدرة على الانغلاق كلياً تحاشياً للرمال العاصفة ومنعاً لجفاف القصبة الهوائية.

- لعينيه أهداب طويلة تقيه الأذى والقذى.
- لغمه شفتان عريضتان السفلى مشقوقة تمكنه من تناول الأعشاب الشوكية.
- أذناه بشعرهما الكثيف قادرتان على الانثناء إلى الخلف والالتصاق بجانب الرأس لمنع دخول الرمال.
- أقدامه منبسطة على هيئة الخف، وهو مكون من نسيج دهني سميك، يعينه على السير فوق كل أنواع التربة.
- ذيله محاط بشعرٍ كثيفٍ يحمي أجزاء جسده الخلفية من كل أذى.
- أسفل صدره، وفوق كل ركلة، وسائد حرشفية قرنية تمكنه من الرقود على الأرض مهما كانت قاسية، وتعينه على رفع جسده عن الأرض لعزله عن حرارتها، وللسماح لتيار من الهواء أن يتحرك لتهويته، وتلطيف درجة حرارته.
- جلده غليظ جداً يمكنه من تحمل العواصف الحارة ومن مقاومة لسع الحشرات وقرص الحيوانات، وقلة انتشار غدد العرقية فيه تقلل من فقدان مخزونه المائي عن طريق التعرق.

-ولأنه من الثدييات المحتررة فله ثلاث معدات، في الأولى أكياس تضم الملايين من الخلايا الغددية التي تفعلّ عملية الهضم وتنتج كمًّا كبيراً من السوائل.

-بلعومه الطويل يحتوي على عدد هائل من الغدد ترطب الوجبة الغذائية الجافة فتسهل حركتها.

-في جهازه الهضمي العديد من الأنزيمات تقوم بتحليل المواد السيلولوزية القاسية وبناء الأحماض الأمينية والبروتينات والدهون وتجهيز عدد من الفيتامينات اللازمة لحياة الجمل وبخاصة فيتامين "د" الذي يلعب دوراً هاماً في تركيز الكالسيوم في عظام هيكله الضخم.

-له قدرات خاصة، منها قدرته، على تغيير حرارة جسده لتتوافق مع درجة حرارة المحيط، وعلى بقاء لزوجة دمه ثابتة مهما نقص الماء من جسمه، وعلى تحمل ندرة الماء والغذاء في الصحراء، وعلى شرب كميات كبيرة من الماء عند توافره دون تأدُّ، وعلى تحمّل إنقاص وزنه أو زيادته بمعدل الثلث دون تعرضٍ لمخاطر صحية..

هذه الصفات.. قليلٌ من كثيرٍ مما وهب الخالق لهذا المخلوق،
والله لفت أنظارنا إلى ضرورة البحث في كيفية خلق الإبل،
كمثالٍ ربما، وإنما لواجدون في كل مخلوقٍ من مخلوقات الله من
الصفات ما يشهد بقدرة الله وعظمته وبديع صنعته.. وإنما لدعوة
مستمرة إلى النظر الهادف والتفكير الواعي والبحث العلمي الجاد
في كل الكائنات والأكوان.

الغراب

﴿فبعث الله غراباً﴾

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لئن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَيْ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ

جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي
الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ [المائدة].

يرجع تاريخ الطيور على سطح كوكب الأرض إلى نحو ١٥٠ مليون سنة مضت.. لذا.. فالغراب سبق الإنسان في وجوده على الأرض بأكثر من ٥٥ مليون سنة على أقل تقدير.. والغربان.. مجتمعات دقيقة التنظيم، تقوم بالعديد من الأعمال الجماعية مثل الصيد والدفاع واللعب والبناء الجماعي للأعشاش والرعاية الجماعية للصغار..

كما أنها مخلوقات شديدة الذكاء والمكر والحذر.. شديدة اليقظة والانتباه.. قادرة على الاتصال مع الغير وعلى التمييز في التعامل بين القريب والغريب.. ولقد شوهدت الغربان وهي تلقي على الطرق العامة ما لم تستطع فتحه من الثمار الصلدة كي تقوم السيارات المارة بدهسها لتكون بعد ذلك لقمة سائغة لها.. كما أثبتت دراسات سلوك الحيوان أن للغربان محاكم تلتزم قوانين العدالة الفطرية، تحاكم الجماعة فيها أي فرد يخرج على نظامها، ولكل جريمة عندهم عقوبتها الرادعة الخاصة بها.. فإذا صدر

الحكم بالإعدام على غراب وثبت جماعة الغريان على المذنب
توسعه تمزيقاً بمناقيرها حتى الموت.. عندئذٍ.. يحمله أحد الغريان
ليحفر له قبراً يناسب حجم جسده ويضعه فيه ثم يهيل عليه
التراب، احتراماً لحرمة الموت.

لهذا.. ناسب الغراب أن يكون المعلم الأول للإنسان في كيفية
دفن الموتى، بعثه الله عند أول حادثة موتٍ بشريٍّ، ألا وهي قتل
ابن آدم لأخيه.

لا تقتلوا الصيد

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ
أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى
بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا
تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ
مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدِيًّا بِأَلْبَانِ الْكَعْبَةِ
أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ
أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
ذُو انْتِقَامٍ (٩٥) أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعًا لَّكُمْ
وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ
الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦].

جاء في كتب التفاسير أنه في عام الحديبية، عندما قصد رسول
الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين العمرة وهم
محرمون، صادفوا في طريقهم كثيراً من الحيوانات البرية، وكانوا
قادرين على صيدها باليد، أو بالرمح، أو بالشباك والفتخاخ،

وكان الصيد من الكثرة بحيث أنّ الحيوانات كانت تجوس بين
 الخيام وتمر بين الناس، عندها نزلت الآية ﴿بِأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ
 اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ لتحدّر الذين آمنوا من الصيد قريب
 التناول، وتعتبر امتناعهم عنه ضرباً من الامتحان لهم، والاختبار
 لصدق طاعتهم، وتتوعد الذين يخالفون ويعتدون بالعذاب
 الأليم، ثم تنزل الآية التالية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا
 الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ لتصدر حكماً قاطعاً وصريحاً وعماماً بشأن
 تحريم الصيد أثناء الإحرام، وبما أن الحج والعمرة كغيرهما من
 العبادات، تبعد الإنسان عن عوالم الماديات وتنقله إلى عوالم
 الروحانيات، فخصوصيات الحياة المادية، والجدال الخصام،
 والرغبات الجنسية، واللذائذ المادية، كلّها شؤونٌ تنفصل عن
 كيان الإنسان في لحظة إقامة العبادة، ومنها مناسك الحج
 والعمرة، وبما أن الصيد شأنٌ يباشر المتع الدنيوية طعاماً ورياضةً
 وتنافساً، كان العزوف عنه حال الإحرام تعبدٌ وطاعةً، ثمّ لو أُحل
 الصيد لزائري بيت الله الحرام، مع اعتبار كثرة الزوار وكثرة ترددهم

في كلِّ سنة على هذه الأرض المقدسة، لانقرض الكثير من
 الحيوانات القليلة أصلاً في تلك الأرض القاحلة الخالية من الماء
 والزرع، لذا فقد جاء تحريم الصيد حال الإحرام، وتحريم صيد
 الحرم وقطع أشجاره وحشائشه في غير حال الإحرام، ضماناً
 لبقاء حيوانات ونباتات تلك المنطقة والحفاظ عليها من
 الانقراض، وصيانتها من الإبادة.. بعد ذلك يشار إلى كفارة
 الصيد في حال الإحرام، ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ
 مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ فهل المقصود بـ "مثل" هو التماثل في
 الشكل والحجم، أي إذا قتل المحرم حيواناً كبيراً، مثل النعامة -
 مثلاً - فهل يجب عليه أن يختار الكفارة من الحيوانات الكبيرة
 كالبعير؟ أم أن "مثل" هو التماثل في القيمة؟ إنَّ المشهور
 والمعروف بين الفقهاء والمفسرين هو الرأي الأوّل، وهذا قد يكون
 ممكناً في حالة وجود المثل من حيث الشكل والحجم، أمّا حالة
 انعدام المثل، فلا بد من تقدير قيمة الصيد بشكل من الأشكال،
 ليتمكن اختيار حيوان أهلي حلال اللحم يقاربه في القيمة.. ولما
 كان من الممكن أن تكون قضية التماثل موضع شك عند

بعضهم، فقد أصدر القرآن حكمه بأن ذلك ينبغي أن يكون بتحكيم شخصين مطلعين وعادلين، فقال ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ مشيراً بذلك إلى مكان ذبح الكفارة، فبيّن أنه "هدي" يبلغ أرض الكعبة، أي أن كفارة الصيد أثناء الإحرام للعمرة يجب أن تذبح في مكة، وكفارة الصيد أثناء الإحرام للحج يجب أن تذبح في منى، ثمّ يضيف أنّه ليس ضروريًا أن تكون الكفارة بصورة أضحية، بل يمكن الاستعاضة عنها بواحدة من اثنتين، كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صيامًا، ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ ومع أنّ الآية لا تذكر عدد المساكين الذين يجب إطعامهم، ولا عدد الأيام التي يجب أن تصام، فإن اقتران الاثنين معاً من جهة، والتصريح بلزوم الموازنة في الصيام، يدل على تحديد عدد المساكين الواجب إطعامهم بمقدار قيمة الأضحية، أمّا كيف يتمّ التوازن بين الصيام وإطعام المسكين، فمقابل كل مدّ أو مدّين من الطعام (ما يعادل نحو ٧٥٠ غراماً من الحنطة وأمثالها) يصوم يوماً واحداً، أمّا إذا ارتكب محرّم

صيداً، فهل له أن يختار أيّاً من هذه الكفارات الثلاث، أو أنّ عليه أن يختار بالترتيب واحدة منها، أي الذبيحة أولاً، فإن لم يستطع فإطعام المسكين، فإنّ لم يستطع فالصيام، فالفقهاء مختلفون في هذا، ولكن ظاهر الآية يدل على حرية الاختيار.

وهدف هذه الكفارات هو ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ كفاراتٌ تذيقه فقط، والتذوق يكون من طرف اللسان، أمّا من لم يبالٍ بهذه التحذيرات المتكررة، ولم يلتفت إلى أحكام الكفارة، وكرر مخالفاته لحكم الصيد وهو محرم، فإنّ الله سوف ينتقم منه في الوقت المناسب والله عزيز ذو انتقام.

وثمّة نقاش بين المفسرين عمّا إذا كانت كفارة صيد المحرم تتكرر بتكرره، أم لا، لكن ظاهر الآية يدل على أنّ التكرار يستوجب انتقام الله، فلو استلزم تكرار الكفارة لوجب أنّ لا يكفي بذكر الانتقام الإلهي، ولزم ذكر تكرار الكفارة صراحة.

وفي السطور القادمة أسرد لقارئ العزيز نبذة لطيفة من أحكام فقهية تفصيلية، أشبعها علماؤنا بحثاً واستقصاءً حول هذا

الموضوع، فقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز للمحرم الاصطياد البري ولا قبول صيدٍ وُهَبَ له، ولا يجوز له شراؤه ولا استحداث ملكه بوجه من الوجوه، ولا خلاف بين علماء المسلمين في ذلك، لكنهم اختلفوا فيما يأكله المحرم من الصيد، منهم من أفتى أنه لا بأس بأن يأكل المحرم الصيد إذا لم يُصَدَّ له ولا من أجله، لقوله صلى الله عليه وسلم : صيد البر لكم حلال ما لم تصيدوه أو يُصد لكم، فإن أكل من صَيْدٍ صَيْدٍ خَصِيصًا من أجله فداه، وأفتى آخرون أن أكل الصيد للمحرم جائز على كل حال إذا اصطاده الحلال (غير المحرم)، سواء صيد من أجله أو لم يصد، لظاهر قوله تعالى : لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم، فحرّم صيده وقتله على المحرمين، دون ما صاده غيرهم.. والمحرم لا يجوز له أن يمسك صيدًا حيًّا، ولا يذكيه بذيح، أما إذا أحرم ويده صيد أو في بيته عند أهله فقد أفتى البعض بإرساله وتركه حتمًا، كما أفتى آخرون بعدم إرساله، أما إذا دلّ المحرم حلالًا غير مُحَرَّمٍ على صيد فقتله الحلال، فقد أفتى بعضهم أن لا شيء عليه، وأفتى آخرون أن عليه الجزاء لأن المحرم التزم بإحرامه ترك التعرض، واختلفوا في

المحرم إذا دل محرماً آخر، هل على كل واحد منهما جزاء، أفى البعض بالجزاء على المحرم القاتل لارتكابه فعل القتل تعمداً، فعلق وجوب الجزاء بالقتل، ونفى الغرم والجزاء على المحرم الدال، وأفى آخرون بوجوب الجزاء على الدال أيضاً لأنه أشار وأعان، وإذا كانت شجرة نابتة في الحل وفرعها في الحرم، فأصيب ما على فرعها من الصيد، فقد استوجب الجزاء لأنه أخذ في الحرم، وإن كان أصلها في الحرم وفرعها في الحل، فاختلف علماؤنا بوجوب الجزاء نظراً إلى الأصل، ونفي الجزاء نظراً إلى الفرع .

أخيراً.. أحل الله للمحرم صيد البحر على الإطلاق، أي كل ما صيد منه ﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلنَّاسِ وَاللَّذِي إِلَيْهِ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أما طعامه، فملحه الذي يستخرج من مائه، وسائر ما فيه من نبات، وميته، وعلى هذا، فإنه يؤكل كل ما في البحر من السمك والدواب وسائر حيواناته، سواء اصطيد أو وجد ميتاً، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم في البحر : هو الطهور

ماؤه الحل ميتته، ليكون ذلك متاعاً ومنتعة لكل الناس، وكلمة
"وللسيارة" تتضمن المقيم والمسافر برّاً أو بحراً.
وقد اختلف العلماء في الحيوان الذي يكون برمائياً هل يحل
صيده للمحرم أم لا ؟ فكان المنع أولى لأنه تعارض فيه دليان،
دليل تحليل صيد البحر ودليل تحريم صيد البر، فيغلب دليل
التحريم احتياطاً.

الناقة

﴿هذه ناقة الله﴾

﴿وَالِي تَمُودَ أَحَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ٧٣].

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨)﴾ [الأعراف].

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ (٦٥)﴾ [هود].

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا
ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا
تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥)
وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٥٦)
فَعَقَرُوهَا فَاصْبِرُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨)﴾ [الشعراء].

﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧].
﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ
لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا
فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا
(١٥)﴾ [الشمس].

ناقة.. أخرجها الله من بين صخور الجبل وأحجاره، ونسبها إليه
بقوله "ناقة الله" .. أرادها قوم صالح المرسل من ربه أن تكون طلباً
معجزاً.. راحوا ينظرون حولهم ويبحثون في الجهات عن مكرٍ
فاسدٍ.. فإذا بأفكارهم تتفتق عن فكرة خبيثةٍ تحمل تحدياً

واستكباراً وتطاولاً.. كان ثمة جبل قريب منهم تتراص صخوره
المؤمنة المسبحة في جلال لا يراه إلا من آمن بخالق الأكوان..
وهنا سقط المستكبرون في هاوية تكبرهم وصلفهم، لتشرئب
أعناقهم إلى طلب غريب مغرٍ في الغرابة..

لَمْ لا تلد هذه الصخور ناقة؟

إنه هو الطلب المعجز، المستحيل - فيما يظنون -

إذاً.. فادع الله يا صالح أن ينشقَّ الجبل عن ناقةٍ حقيقيةٍ تخرج
منه، وسنصدقك بعدها..

وهكذا يبلغ السخف من أولئك الذين يعطلون عقولهم عن أداء
عملها في تلمس الهداية، ولكن المعجزة كانت أعظم وأكبر من
أفاق طلبهم، فقد انشقَّ الجبل عن ناقةٍ حقيقيةٍ تحمل في بطنها
جنينها راحوا يتلمسونها بأيديهم مصدقين أو لعلمهم غير
مصدقين، لكن المستكبرين في تبجحهم وعتوهم لا تنفعهم آية
بينه ولا معجزة واضحة.. يظلون خارج حدود الإيمان في أصقاع
العناد العاتي والإصرار الصريح، لينالوا في خاتمة أمرهم نهاية
مفجعة.. غير مأسوفٍ عليهم.

الثعبان.. الحية

﴿فإذا هي حية تسعى﴾

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ
عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى (١٨)
قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠)
قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١)﴾ [طه].

في الرجوع إلى آلاف ما قبل الميلاد، وإلى ما قبل وما بعد اختراع الكتابة.. وفي محاولة منا لاستقراء أفكار الإنسان من خلال أوابده ومنحوتاته ورؤمته، نجد أنه كان يستخدم الكثير من الرموز في التعبير، أما رموزه، فكانت من موجوداتٍ حوله – الثور، النسر، الأفعى، وغيرها – تشاركه العيش فوق كوكب الأرض، ينظر إليها ويدرس خصائصها، ثم يسقط معتقداته عليها.. ولقد رأى الإنسان الأفعى.. فرأى حركاتها الملتوية المتمعجة، وارتباط عيشها عمومًا بالشجرة، وشبهها المتفق عليه بجذور وأغصان

الشجرة، وبالطريقة التي تخلع بها ثوبها حين تتعري من أوراقها في الشتاء لتكسى بها من جديد في الربيع، ولسانها المتوعد، ونموذج جسدها المتموج، وفحيحها، وطريقتها في مهاجمة ضحاياها وقتلهم بلف نفسها حولهم، وتعدد بيئاتها وأماكن تواجدها، فهناك أفاعٍ تعيش في الغابات، وأخرى في الصحارى والجبال، وهناك الأفاعي المائية، أو تلك التي تتوارى حول البحيرات والبرك والآبار والعيون.

وهكذا.. تنوع المعنى الرمزي للأفعى وتعدّد، باعتبار كل المعاني المتعلقة بالأفعى ككل، أو بأي من صفاتها الرئيسية، وإذا كانت كل الرموز وظائف وإشارات لأشياء تصطبغ وتتشرب بالطاقة، فإن الأفعى أو الثعبان صارت رمزًا للطاقة نفسها وللقوة الخالصة، وغالباً ما يُنظر إلى الثعبان الذكر على أنه رمز للحكمة والطب والمعرفة والسحر والخلود، أما الأفعى فهي رمز للآلهة الأم العظيمة والطاقة الكونية المؤنثة.

صارت الأفعى رمز الإله الكبير إنكي "إله الحكمة والفلسفة والمسؤول عن شؤون المياه" كان أحد ألقابه (الثعبان العظيم

الواقف فوق أريدو) واستمر هذا الرمز له حتى في الفترة الأكديّة بعد أن تغيّر اسمه إلى (أيا) كما أنه كان يرمز إلى ابنه مردوخ إله مدينة بابل، فعادة ما يصوّر في الأختام الإسطوانية والمنحوتات وإلى جواره الثعبان المسمى (موشخوشو أو موشوشو) وهو حيوان خرافي، نقشت صورته على واجهة بوابة عشتار في بابل التي أقيمت في العصر البابلي الحديث.

وقد ورد هذا الحيوان في ملحمة الخليقة البابلية، حين ذُكر صراعاً قد نشب على السلطة والحكم، بين الإله مردوخ والآلهة تيامة، والتي صُوّرت بهيئة أفعى عظيمة جبّارة، وأن الصراع قد حُسم لصالحه.

وفي الحضارة السومرية شكّل إله أفعى عملاقة تدعى تيامات Tiamat، هي التي خلقت العالم، كما كان أهم ألقاب الإله دموزي هو الثعبان العظيم أو ثعبان السماء في السومرية، أما الآلهة إينانا فإنها تحمل اسم والدة الثعبان العظيم، قد صُوّرت بهيئة المحاربة وهي تحمل النبال والسهم وتمسك الأفاعي بيديها إمعاناً في إظهار سطوتها وقوّتها بوصفها آلهة الحرب.

هناك إلهًا آخر اتخذ من الأفعى رمزًا له حتى منتصف الألف الثالث ق.م، ثم استبدل رمزه بصورة بشر نصفه الأسفل بهيئة أفعى، ذلك هو نيراه، الإله الثانوي لمدينة الدير تل العقير.

قصة الثعبان موجودة في الأسطورة الغانية عند قبائل الأشانتي، وهي تتحدث عن الخلق.. وفي الأساطير الأسترالية كذلك نجد ذكر الحية أو الأفعى.. وفي أناشيد الأساطير الكنعانية (أناشيد البعل) ذكرت الحية الضخمة التنين.. وفي الهند ترتبط عبادة الأفعى أو عبادة روحها برمزية مياه البحر.. أما في مصر فكانت الأفعى أو الثعبان مألوفة جدًا، فالشكل الهيروغليفي المطابق صوتيًا للحرف "Z" هو تمثيل لحركة الأفعى أو الأفعى ذات القرون، وتمثل صوتيًا بما يوافق الحرف "F" ويشير هذا الصوت الهيروغليفي إلى القوى البدئية والكونية.

وهكذا.. نجد حضورًا واسعًا لرمز الأفعى أو الثعبان وعبادته على امتداد مساحات شاسعة من العالم القديم، لذا فقد كان حريًا بالقرآن العظيم أن يعرّض هذه الرمزية للتصدع والاهتزاز.

في اللقاء الأول بين موسى وربه في الواد المقدس طوى.. حين
كلمه الله وأخبره أنه قد اختاره ليستمع لما يوحى.. عرفه بنفسه،
وأمره بعبادته وإقامة الصلاة لذكره.. وفي هذا اللقاء الحاسم
الذي يشكل نقطة مفصلية هامة في حياة موسى الإنسان.. ومن
أجل انتقاله الهادئ من مجرد إنسان عادي، يمارس حياة طبيعية
إلى نبي مرسل، تعطفت حكمة الله ولطفه، لسؤال موسى عن
إحدى أدوات حياته العملية البسيطة.. ما هذه يمينك يا
موسى؟..

عصا.. يتوكأ عليها ويهشّ بها على غنمه وله فيها مآرب
أخرى.. هنا أراد الله أن يعلمه أن هذه الأداة الصغيرة، المهملة
التأثير ستكون من الآيات الكبرى التي ستدكّ عروش طاغية مثل
فرعون أمره بإلقائها فإذا هي حية تسعى.. حية حقيقية تتحرك..
يمدّ إليها اليد ليأخذها، فتعود بإذن ربها سيرتها الأولى، تعود
عصاه التي كانت.

﴿فَإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧].

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢].

وفي اللقاء الأول بين موسى النبي المرسل وفرعون الذي رياه صغيراً.. وقف موسى معلناً أنه رسولٌ من رب العالمين، وأنه قد جاء ليثبت صدق رسالته، حاملاً البينة التي سيطلبها فرعون.. عندها.. ألقى موسى عصاه، فإذا هي ثعبانٌ مبين.. ثعبانٌ ضخماً هائلٌ يبعث الرعب في قلوب الحاضرين.. آيةٌ قُدِّر لها أن تجابه مكائد السحر العظيم الذي يتقنه سحرة فرعون، في جعل أعين الناس ترى الحبال الساكنة والعصي الجامدة متحركة كما الأفاعي في تلويها.. كانت الآية عظيمة فهمها أول من فهمها السحرة والكهنة.. الذين يتقنون اللعبة وأسرارها، ويدركون أبعادها، ويعرفون أن الأفاعي مجرد مخلوقات لا تضر ولا تنفع، لذا ألقى السحرة ساجدين لخالق الأكوان رب العالمين.

الجراد والقمل والضفادع

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ
آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾
[الأعراف: ١٣٣].

الجراد.. القمل.. الضفادع.. تذكر ثلاثتها مع جنديين اثنين
آخرين هما الطوفان والدم، كانوا جميعًا من جنود الله التي سلطت
على فرعون وقومه..

بدأ الله بالصنف الشديد ثم بعد ذلك بالأشد، كان الطوفان أولها
إذ أرسل الله المطر الدائم في الليل والنهار، ودخل الماء بيوت
أتباع فرعون حتى وصل إلى تراقيهم وأعناقهم، وحتى أيقنوا
بالهلاك، فأتوا موسى عليه السلام يطلبون منه كشف العذاب
مقابل إيمانهم له وإرسال بني إسرائيل معه، وما أن كشف الله
عنهم العذاب حتى نكثوا عهدهم، فأرسل عليهم الجراد..

وأما الجراد.. فيعيش في أسرابٍ تكون في بعض الأحيان مخيفة
قد يصل عددها في السرب الواحد إلى عشرات البلايين وبكتلةٍ

تقدّر بآلاف الأطنان.. تأكل في اليوم الواحد قدر وزن السرب من المزروعات والنبات.. والجراد إذا انتشر سربٌ واحدٌ منه فإنه يغطي مساحة تقدّر بأكثر من ألف كيلومتر مربع، فما بالناب بعدة أسراب منتشرة ؟ وعلى الرغم من معرفة العلماء بدورة حياة الجراد إلا أنهم لم يتمكنوا من التنبؤ بغاراته الهجومية قبل بدئها، مما يؤكّد أنّها من جند الله يسخرها بعلمه وحكمته وإرادته وقت يشاء وحيث يشاء.. والله أرسلها على فرعون وقومه بشكلٍ غير معهودٍ، يغطي الأرض الخضراء ويحجب ضياء الشمس بأعداده الهائلة، لا يترك لهم زرعًا ولا ثمارًا..

أما القمل.. الحشرة القميئة.. فهي تضمّ أنواعًا كثيرة جدًّا، من مثل قمل الإنسان، قمل الطيور، قمل النبات، قمل الخشب، قمل الكتب، قمل النحل.. منها الماصّ للدماء، ومنها القارض الذي يتغذى على قشور الجلد وأجزاء الشعر والريش.. منها قمل الرأس وقمل الجسم.. وهذا الأخير يمثل آفة شديدة الأذى للإنسان وشديدة الضرر به، فهي تنقل إليه الجراثيم المسببة للعديد من الأمراض الخطيرة كالتيفوس البائى على سبيل المثال،

وهي إذ أرسلت إلى قوم فرعون فقد أقضت مضاجعهم وسببت لهم الكثير من الضيق والأذى، وها هم كعادتهم يطلبون كشف العذاب في مقابل الإيمان، وكعادتهم ينكثون العهد من جديد. أما الضفادع.. فهي من الأخطار التي تهدد حياة الإنسان بما تحمله من الفيروسات التي تصيب الكبد والكلية.. ونقيقتها من الأصوات المزعجة جدًا لأنه يسمع عبر مسافات طويلة تقدر بالأميال.. ولقد كثرت عند آل فرعون إلى درجة أن نعّصت عليهم عيشهم، وكانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم وتقفز على فرشهم وملابسهم.

﴿كأنهم جرادٌ منتشر﴾

﴿حُشْعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

أولئك الذين كذبوا خبر الساعة وعلامات القيامة، رأوا بأعينهم آية محسوسة هي انشقاق القمر، لكنهم أعرضوا عن الإيمان بها متبعين أهواءهم واعتبروها سحرًا قد وقعوا تحت تأثيره، رافضين كل ما جاءهم من أخبار الأمم السابقة الهالكة بما كذبوا.. لكن

يوم الحساب قادماً لا محالة بأهواله العسيرة ومواقفه، يقتادهم إليه ذل أعمالهم السيئة.. خاضعةً جوارحهم، خاشعةً أبصارهم قد خرجوا من قبورهم يكسوهم صغار التكذيب وهوان اتباع الهوى.. لكن الصورة الحسية التي ربطها القرآن بصورة أولئك هي صورة الجراد المنتشر.. صورة حسية ملموسة شديدة القرب من واقع الناس.. فيها الكثير من البشاعة مما تعافه العين.

شبههم بالجراد المنتشر لأن الجراد "لا جهة له يقصدها" عندما لا يكون لأسرابه وظيفة الفتك بمحاصيل عيّن لها خالقه لغاية العقاب أو الابتلاء، وهاهم يوم النشور يخرجون من القبور فزعين ليس لأحد منهم جهة يقصدها، قد داعهم الداعي إسرافيل، مهطعين إليه مسرعين مادي أعناقهم لا يتأخرون ولا يتباطؤون، يقولون هذا يوم عسر صعب شديد، وفي ذلك إشارة إلى أن عسره وصعوبته وشدته على الكافرين فحسب.

الحوت

﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي
السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا
يَسْبِتُونَ
لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبُؤُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾
[الأعراف: ١٦٣].

البحر هو القسم الأكبر، والجزء الأعظم من كوكبنا الجميل..
تذكر أحيائه على وجه العموم، بذكر اللحم الطري المستخرج
منه، وصيد البحر الحلال المأكل.

أما على وجه الخصوص.. فقد ورد ذكر حيتان بني إسرائيل أولاً
في المصحف الشريف.. من خلال قصة حاضرة البحر، وهي
مدينة بين مدين والطور تدعى "أيلة"، كان رزق أهلها صيد
البحر، شأنها شأن كل مدن السواحل، ولقد أراد الله اختبار
هؤلاء بتحريم الصيد في يوم السبت، جاعلاً أمام أعينهم إغراءً

شديداً بالمخالفة، فقد كانوا يرون السمك يوم السبت كثيراً ظاهراً مثل شراع المركب على سطح الماء، بينما تغيب الحيتان في باقي أيام الأسبوع، الأمر الذي قدح في زناد أفكارهم الحيلة لاصطيادها يوم السبت دون سحبها من الماء بوساطة شباكٍ وأسلاكٍ تحتجز الأسماك الشُّرْع، تغرهم في ذلك شهوة الكسب الحرام، ورغبة الريح الجشع.. فإذا بهم يخالفون أمر الله ويتجرؤون على معصيته.. يخدعون أنفسهم ويخادعون الله وهو خادعهم.. ويسقطون في هاوية الإثم.. لتلحق بهم لعنة المسخ إلى قرده.

﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلَّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

لحم السمك الأبيض الطري..

يشكّل الطعام الرئيسي لعدد كبيرٍ من البشر، وهو مصدرٌ ممتازٌ من مصادر البروتين كما أنه يملك مقدارًا مرموقًا من المواد الدهنية التي تمتاز بأنها أسهل هضمًا من دهن اللحم الأحمر، كما أن نسبة اليود الموجودة فيه تشجع الغدة الدرقية على حرق الدهون، وتسرع عملية الاستقلاب، وتسهّل على العصارة البنكرياسية مهمة امتصاصه، ونضيف أن لحم السمك مصدر ممتاز من مصادر الفوسفور الذي يساعد العمود الفقري والأسنان على النمو، وله دور بالغ في حياة الأنسجة، كما أنه يحتوي على الكالسيوم وعلى الفيتامينات (آ) و (د).

﴿إني نسيت الحوت﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا

الشَّيْطَانُ أَنْ أذْكَرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ
ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا
عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا
(٦٥) ﴿[الكهف]﴾.

وهنا يعود الحوت للظهور في قصة موسى عليه السلام مع فتاه في رحلة البحث عن رجل العلم اللدني والرحمة العنودية.. ذلك الحوت المعجزة الذي أصطحب ليكون الزاد والطعام فما أن بلغ مع رفيقيه موسى وفتاه مجمع البحرين، حتى دبّت فيه الحياة واتخذ سبيله في البحر سرّياً.. لتكون هذه الإشارة العجيبة المبتغاة للغاية المنشودة في لقاء ذلك العالم.. وقد اقترن ذكر الحوت في الآيات مع النسيان "نسيا حوثهما"، "وما أنسانيه إلا الشيطان"، فهل نقرأ ملمحاً ما يوحي بالارتباط والتلازم بين النسيان والشيطان، أهو فعلٌ من أفعاله وإيجاءٌ من إيجاءاته يمارسه حيال البشر؟؟ إلا أن رحمة الله ترفع عنا إثمه أو جزاءه مع الخطأ وما أستكرهنا عليه، كما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : رفع عن أمّتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه.

﴿فالتقمه الحوت﴾

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)﴾ [الصفات].

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ [الأنبياء].

أما الحوت في قصة يونس عليه السلام، فهو معجزة أخرى.. لا تقل عن سابقتها.. ولأهمية دوره في سيرة ذلك النبي نُسب إليه في موضعين اثنين، "ذا النون" في سورة الأنبياء - والنون الحوت - و "صاحب الحوت" في سورة القلم..

يونس النبي المرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل في العراق، أرسله الله ليدعوهم إلى عبادة الله وحده، وقد انتشرت فيهم

الوثنية وعبادة الأصنام، وكان لهم صنم يدعى عشتار.. لكن القوم كذبوا نبيهم ولم يستجيبوا لدعوته، شأنهم شأن أكثر أهل القرى، ولم يلق منهم إلا آذاناً صمّاً وقلوباً جاحدة جامدة، فضاقت بهم ذرعاً، وتوعدهم بالعذاب.. ثم خرج من بينهم على عادة الأنبياء عند نزول العذاب بأقوامهم قبل أن يأذن الله له في الخروج، أما القوم، فقد خافوا وغيّروا موقفهم من دعوة نبيهم، نادمين، عازمين على التوبة والإنابة، وخرجوا بأطفالهم وأنعامهم إلى الصحراء يتضرعون إلى الله ليرفع عنهم العذاب.. ولقد قبل الله توبتهم فكشف عنهم العذاب.

وأما يونس عليه السلام.. فقد ركب مع قوم في سفينة فهاجت بهم الأمواج، ورأوا أن فيهم آبقٌ وصاحب ذنبٍ، فخافوا أن يغرقوا.. واستهموا على رجلٍ يلقونه في البحر من بينهم، يتخفون منه، فوقعت القرعة على النبي يونس ثلاثاً فكان من المغلوبين.. عندها ألقى النبي بنفسه في البحر.. وكان الحوت في انتظاره، بأمر من خالق البحار ومخلوقاتها، والأكوان وكائناتها.

التقمه الحوت وابتلعه بلقمة واحدة على الفور من نزوله في الماء، وهو مليئٌ أي داخل في الملامة لنفسه..

التقمه الحوت العظيم.. وحش المحيطات دون منازع.. الجندي المطيع من جنود الله.. ابتلعه.. لا ليكون له رزقاً.. ولا ليأكل له لحمًا أو يهشم له عظمًا.. وإنما لتكون بطن الحوت له سجناً تآديياً.. مؤقتاً.. لن يلبث فيها إلى يوم يبعثون، وما إن أحاطت به الظلمات الثلاث.. ظلمة الذنب الذي ليم عليه.. وظلمة قاع البحر في ليل مدلمهم.. وظلمة جوف الحوت.. حتى سارع إلى الدعاء لله والالتجاء إليه والاحتماء به.. اتخذ هناك مسجداً فصلى في موضع لم يبلغه أحد من الناس.. سبّح كثيراً.. ونادى في الظلمات.. أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.. وكان من المسبحين.. المصلين.. حتى أوحى الله إلى الحوت إن اقذف به في العراء على ساحل البحر، فألقى به وهو سقيم، ثم أنبت الله عليه شجرة من يقطين، فأكل منها واستظلّ بأوراقها وظلّها حتى عافاه الله من سقمه وتاب عليه من ذنب استعجاله الخروج من قومه مغاضباً لهم قبل أن يأذن الله له.

﴿لا تكن كصاحب الحوت﴾

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى
وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

هو ذا الحوت ثانيةً.. الحوت الشهير.. بل أشهر حوتٍ في التاريخ، اقترن بصاحبه النبي يونس عليه السلام من خلال قصة استعجال النبي ونفاد صبره، ثم مغادرته قومه الذين كذبوه، قبل أمرٍ، أو إذنٍ على الأقل من الله الذي أرسله إليهم.. وفي الآية السابقة يطالب القرآن النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم بالصبر على الأذى والتكذيب والمعاندة، بالغًا ما بلغت كلفة هذا الصبر، ويذكره بمصير نبي نفذ صبره، فاستعجل، وبادر بنفسه إلى إنهاء مهمته الموكلة إليه ليلقى مصير التهام الحوت له.. فهل ترانا نجد في دعوة الصبر هذه، ملمحًا مؤثرًا في طرائق عيشنا، فترغم أنفسنا على الثبات لما أقامنا الله فيه، أو على ما اخترناه من آمالٍ وطموحاتٍ، فلا نغادر المهمة قبل تمام إنجازها، وإيفائها حقها من الوقت والاهتمام والجهد، للإتيان بما على أكمل وجه مطلوب من حيث الجودة والإتقان والمداومة،

ليصدق فينا المثل السائر "الثبات عنوان النجاح"، ولعلي أُمح
أيضًا إلى أن انشغال واستغراق أحدنا بما يعمل يخفف من حدّة
وكثرة فُرص التصارع والاشتباك والمنازعات، ويوصل إلى مزيد من
الإيجاز والخيرات.

الكلب

﴿كمثل الكلب﴾

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ
فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ
ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

في القرآن أمثالٌ تضرب.. وأنباء تتلى.. صورٌ حسيةٌ متحركة..
تشرح بعفوية المشهد ودقة العرض غايةً مطلوبة تنتقل بحواس
الناس إلى إدراك حقيقة ما.. ومن هذه الأنباء.. نبأ الذي آتاه
الله آياته فانسلخ منها.. قد منحه الله علمًا، وهيأ له أسباب
الهدى.. وأحاطه بدواعي الرشد والكمال، كما يحيط الجلد
بالجسد.. فأبى..

أبى إلا الانسلاخ عن هذه القيم الرفيعة ليتساقط بعريه الفاضح،
متنكبًا عن الصراط القويم.. وليصير بانحرافه غرضًا للشيطان يحركه

كيف يشاء، متخليًا بذلك عن آدميته وإنسانيته، متقمصًا هيئة الكلب الملتصق بطين الأرض، يلهث دائمًا على كل حال يكون عليه.. إن طورد وإن لم يطارد.. وإن تحرك وإن لم يتحرك. ولقد عرف العلم الحديث إن سبب لهات الكلب الدائم على أي حالٍ هو عليها، إنما هو تزويد جسمه بقدرٍ كافٍ من الأكسجين عن طريق فمه المفتوح ولسانه المتدلي إلى الخارج.. ذلك أن جسم الكلب لا يحمل غدداً عرقيةً إلا في باطن أقدامه فقط.

هذه الصورة التي يأنف منها أولو الألباب..
ألصقت بأولئك الذين كذبوا بآيات الله..
سواءً كانت تلك الآيات التي يسمعونها تتلى في الكتاب المنزل،
وقد عرفوا أنها الحق..
أو تلك التي يرونها بأعينهم من آيات الكون المرئية، وقد أبصروا
بديع صنع الله.

﴿وكلبهم باسط ذراعيه﴾

﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم زُقودٌ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً﴾ [الكهف: ١٨].

﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعديتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً﴾ [الكهف: ٢٢].

الكلب حيوانٌ وفي لأصحابه يتفانى في خدمتهم ويسهر لحراستهم.. وقد شهد له البيان الإلهي في محكم كتابه بخاصية ولائه تلك، فذكره في معرض تعداد أصحاب الكهف ليجعل منه رابعهم، أو سادسهم، أو وثامنهم، وبهذا يدخل معهم في تجربة الموت أولاً ثم الحياة بعد ثلاثمائة وازدادوا تسعاً.

وبمناسبة كون الكلب "وثامنهم"، ندلف إلى خصائص الأرقام من واحد إلى عشرة، إذ لم تكن الأرقام عند علماء العرب والمسلمين مجرد أعداد صماء، وهم قد تعاملوا مع كل رقم من

الناحية التراثية والعلمية للكشف عن أسرار تلك الأعداد، ولقد أطلق العرب الأقدمون على الرقم (٧) نهاية العدد، أو الرقم ذا الأسرار الكثيرة.. فإذا تأملنا الأرقام من (١) إلى (١٠) لوجدنا أن كل منها يقبل القسمة على عدد منها، أو نجد رقمًا مضاعفًا له، ماعدا الرقم (٧)، فالرقم (١) نصف الرقم (٢) والرقم (٢) ضعف العدد (١)، والرقم (٣) نصف الرقم (٦) و(٦) ضعف (٣)، والرقم (٤) نصف الرقم (٨) والرقم (٨) ضعف (٤)، والرقم (٥) نصف الرقم (١٠) والرقم (١٠) ضعف الرقم (٥)، والرقم (٩) ثلاث أضعاف الرقم (٣)، أما الرقم (٧) فهو الوحيد الذي لا يقبل القسمة، ومن هنا اعتبره العرب نهاية العدد، لأن أي عددٍ بعده مجرد تفرغ لمستوى آخر من الأرقام التي تسبقه، ولقد أثبت القرآن هذه الحقيقة عندما حدد عدد أهل الكهف بثلاثة رابعهم كلبهم أو خمسة سادسهم كلبهم أو سبعة وثامنهم كلبهم، وجاء حرف الواو بعد الرقم (٧) لكونه نهاية العدد، ويأتي بعده الترقيم للمستوى التالي للأرقام، لذلك يطلق العرب على تلك الواو والثمانية

الذئب

﴿أخاف أن يأكله الذئب﴾

﴿قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا آبَاءَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧)﴾ [يوسف].

نبي الله يوسف.. الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم..
يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم على جميعهم السلام..
الإنسان الذي تكالب عليه في حياته أكثر من همم، ولحق به
أكثر من غدر، وداهمته أكثر من نائبة.

ابتدأه الدهر بحرمانه من أم رؤوم تحنو عليه وتحميه من شر منّ وما حوله، ثم حباه عشرًا من الأخوة الذين يكبرونه في العمر وقد امتلأت صدورهم حسدًا وغلاً من مكانته عند والدهم، فتأمروا لقتله أو طرحه أرضًا، إلى أن أجمعوا أمرهم أن يجعلوه في غيابة الجب، ليحرموه من عطف أبيه عليه وحبه له.. يبيع عبدًا وللعبودية أصفادها التي تؤثر في الروح قبل الجسد.. العبودية رُقٌّ وذُلٌّ مهما أكرم مثواه.. ترعرع تحت ظلالها شابًا جميلًا وملكًا كريمًا، لتتلقفه في فتوته مصيدة الإغواء المقصود والمكر الأنثوي المتسلط الذي أودى به إلى سجنٍ دام بضع سنين.

في سياق سورة كهذه اجتمعت فيها ألوان من الغدر والمكر والقهر والأسر.. ناسب أن يذكر الذئب لترتبط بعض أحداث القصة به.. صحيح أن الذئب كان موضع تهمة خطيرة هي أكل الطفل يوسف.. وصحيح أنه كان بريئًا من هذه التهمة براءة خالصة، إلا أن تاريخه الافتراضي الشرس، وطبيعته الانقضاضية الغادرة كانت هي السبب في إدانته وإصاق الجريمة النكراء به.. وإني لأتساءل عن السر الذي جعل النبي يعقوب يبادر بأبنائه

بالطرح المسبق لاحتمال أن يأكل الذئب أخاهم، قائلاً لهم "أخاف أن يأكله الذئب"، أترأه كان الخطر الوحيد الذي يحدق بالإنسان آنذاك؟ وهم كانوا قد أجمعوا أمرهم أن يتخلصوا منه بجعله في غيابة الجب، ولعلهم لم يكونوا قد فكروا أو حضروا الحجة المزعومة المناسبة لغياب يوسف وعودتهم بدونهم، ليجدوا في فكرة أبيهم المخرج المناسب من مأزق التبرير له.

البعير

﴿ كيل بعير ﴾ .. ﴿ حمل بعير ﴾

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا
أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ
أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: ٦٥].
﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ
رَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٣].

قصة النبي يوسف في سورة كاملة قصة متفردة مشوقة يقرأها المرء في كتب التفاسير فتطوف به في نواحٍ عدة وأطوارٍ مختلفة من حياة هذا النبي الكريم، ونمُرُّ بالذكر هنا على طيفٍ منها يناسب موضوع البحث.. لم يكن النبي يوسف مُلهَمًا في تأويل منام الملك وتعبير رؤياه فحسب بل كان حصيفًا ذكيًا في معالجة المحنة التي ستحط على البلاد، وبناءً عليه فقد رفع إلى الملك طلبًا بأن يجعله على خزائن الأرض كونه حفيظٌ عليمٌ يملك القدرة على

إدارة الأمور بالدقة المطلوبة لحفظ المحاصيل والحبوب في سنوات الخصب وصيانتها ثم توزيعها بحكمة وضبط في سنوات الجذب، مما يكفي المحتاجين في مصر وما حولها، ويبدو أن يوسف كان يعطي الناس على دفعاتٍ وحصص ثابتة، وفق نظامٍ يشبه نظام البطاقات التموينية حالياً، ولا يدع مجالاً للقادرين على الشراء أن يحتكروا كمياتٍ كبيرة لتخزينها بينما يجوع الآخرون، فيتمكن بذلك من موازنة حاجات الناس خلال الزمن الطويل الذي انبرى لإدارته، وكانت الدفعة للفرد الواحد مقدار "حمل بعير" والحمل ما يُحمل على الظهر، ولأنه مقدارٌ معلوم محدد يكفي مؤونة شخص لفترةٍ محددة، فقد اعتمد كَيْلاً ثابتاً يكال لكل أحدٍ من الناس.

النحل

﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّمْرَاتِ فَاَسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)﴾ [النحل].

هو وحيٌّ إذا.. وحيٌّ من الله إلى تلك الحشرة، علّمها وأرشدّها إلى ما فيه صلاح معيشتها، وما يترتب على ذلك من نفع للعباد، وحيٌّ لاتخاذ أماكن مأواها، وأنواع غذائها، والسبل التي تأخذها شغالات النحل من خلاياها إلى مواطن الزهور والرحائق ثم العودة إلى الخلايا عبر مئات الكيلومترات دون أن تضلّ عنها مهما تباعدت المسافات وتشعبت الطرق، وربما يكون المقصود من السبل سبلٌ وقنواتٌ داخل جسم النحلة وما يلحق بها من

غددٍ فكيةٍ ووجناتيةٍ وغدد خلف المخ تفرز مواد مساعدة لتطرية وتلين ولصق قشور الشمع التي تفرزها غدد الشمع من بطن الشغالة، والغدد اللعابية في الفم التي تفرز خمائر مهمة لازمة لتحويل السكريات المعقدة في رحاءق الزهر إلى سكريات بسيطة، ثم الغدد البلعومية التي تقوم بتكوين الغذاء الملكي.

أوحى الله لها وحي إلهامٍ أن تتخذ من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرش الناس ويرفعونه من كرومٍ وسقوف، ولعله من الإعجاز أن نذكر أن عسل الجبال أطيبها وأجودها فاقتضى ذكرها في القرآن أولاً، أما بيوت النحل السداسية الشكل المنتظمة هندسيًا فهديّ ربانيّ معجز، يمكنها من اتخاذ مساحاتٍ منفرجة الزوايا دون أي ضياعات أو اختناقات في المكان، كما أمر الخالق النحل أن تأكل من كل الثمرات، وبتنوّع الثمرات والأزهار والرحائق تنوّع فوائد وطعوم وروائح وألوان ونكهات وكثافات وقابليات التبلور ودرجات الرطوبة والتركيب الكيميائي للعسل، العسل - شراب مختلف ألوانه - الذي يخرج من بطونها، فيه شفاء للناس، وضمير الهاء في بطونها يعود على إناث النحل من

الشغالات، وهن اللواتي يصنعن ذاك الشراب، فيخرج من بطونها في حالة سائلة تحمل بعض المعلقات ثم يجمد ويتبلور بعد ذلك، أما مكوناته فتشمل عسل النحل، الغذاء الملكي، شمع النحل، صمغ النحل وغراؤه (العكبر)، سم النحل، خبز النحل. وما نشهده في خلايا النحل من الدقة والتنظيم والتعاون بين أفراد المملكة، وما نتذوقه من حلاوة وطيب شراهما، لآيات تدعو إلى التفكير والتأمل ببدیع خلق الله، وهنا أخصّ بالذكر لطيفة من ألطف عجائب مجتمعات النحل أن عدد الإناث - في أي خلية - يفوق عدد الذكور - بنسبة ثابتة هي ١,٦١٨ - وهي النسبة المعروفة بالنسبة الذهبية.

الغنم

﴿غنم القوم﴾

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ
غَنَمَ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨].

من أعظم التداخلات التي تتأثر بها حياة الناس في رحلتهم المعاشية، قضايا تكون أحياناً شائكة يتنازع الطرفان فيها، فيتطلب الأمر فهماً وحكمة لمن يضطلع بدور الحكم. قصة طريفة جرت أحداثها في زمن نبي الله داوود وابنه سليمان عليهما السلام..

قطيع من الغنم رعت ليلاً، فدخلت إلى كرمٍ قد أُنبِتت عناقيده فلم تدع ورقةً ولا عنقوداً من عنبٍ إلا أكلته..

حين اشتكى صاحب الكرم إلى نبي الله داوود فقضى له بالغنم مقابل ما حلّ به من خسارة.. أما سليمان عليه السلام فقد آتاه الله فهماً وحكمةً حيث أمر بأن يدفع الكرم إلى صاحب الغنم

فيقوم بتعهّد إعادته كما كان ليلة نفشت فيه الغنم وتدفع الغنم
إلى صاحب الكرم فيستفيد منها وينتفع بلبنها، إلى حين عودة
الكرم كما كان.. بعد ذلك يعطى أهل الغنم غنمهم وأهل الكرم
كرمهم.

الذباب

﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

يا أيها الناس.. نداء لكل الناس يشدّ أنظارهم، ويلفت انتباههم إلى مثلٍ يُضرب، ولعل الحكمة من خفاء من يضره وبنائه للمجهول يزيد في إظهار جلاء الفكرة التي يطرحها، نداءً يأمرهم بالاستماع للمثل، وهذا هو المناط، الاستماع المقصود الواعي بفتح أجهزة الاستقبال والتلقي، الاستماع المطلوب في الآية بغية استمطار فوائده، لأنها ستشرح القضية بعد ذلك، ستحدث عن نبأ معبودات الناس من دون الله، تعلن أن الذين (وهو اسم موصول للجمع) تعبدون أيها الناس من دون الله ضعفاء واهون،

حقراء، لا يقدرّون على خلق أبسط الأشياء، لا أحدٌ بذاته، ولا كلهم إذا اجتمعوا لذلك، وجاء المثل بالذباب، والذبابة في زمن تنزيل القرآن معروفة كحشرةٍ تافهةٍ يستصغر الناس شأنها، ولا يلقون إليها بالاً أكثر من ذبّما عن طعامهم أو قتلها للتخلص من إزعاجها.

ولكن علم الحشرات اليوم يجبرنا بالكثير من المعلومات، حيث تأتي الحشرات في المقام الأول من حيث الانتشار على الأرض، ويأتي الذباب في المرتبة الثالثة بعد النمل والبعوض، وقد اكتشف العلم أن في جسم الذبابة أكثر من مليون خلية عصبية متخصصة بتحركات تلك الحشرة، وأن هذه الخلايا العصبية مرتبطة بـ ٣٨ زوجاً من العضلات، ١٧ زوجاً لحركة الجناحين، و ٢١ زوجاً لحركات الرأس، للذبابة زوجاً من العيون المركبة التي تتكون الواحدة منهما من ستة آلاف عيينة سداسية، يتصل بكل واحدة منها ٨ خيوط عصبية مستقبلية للضوء، ليكون مجموع الخيوط العصبية للعين الواحدة ٤٨٠٠٠ خيط يمكنها من معالجة مائة صورة في الثانية، وهي تتغذى عادة على النفايات

المختلفة، ولا تسلم أطعمة الناس وأشربتهم من هجمات، تمتص
الشراب بواسطة خرطومها ليصل إلى جهازها الهضمي المزود
بالقدرة على إفراز الخمائر القادرة على هضمه وتمثيله تمثيلاً كاملاً
في ثوان معدودة، وإن كان طعاماً صلباً تفرز عليه من بطنها
عددًا من الأنزيمات والعصائر الهاضمة إضافة إلى لعابها، فيفكك
ويذيب ما تقع عليه من الطعام الصلب فوراً لتمتصه، وبذلك لا
يمكن استنقاذه منها بأي حالٍ من الأحوال.

ولقد كان المشركون يضمخون أصنامهم بالطيب، فيقع عليه
الذباب، ولو سلب منه شيئاً لما استطاعت تلك الآلهة المعبودة
استرجاعه منه رغم ضعفه وحقارته، ضعف عابد الصنم الذي
يطلب الخير من الصنم، وضعف الصنم المعبود المطلوب منه،
وكلاهما حقير ضعيف.

فيا أيها الناس.. ضُرب المثل فاستمعوا.. واتركوا أصنامكم.. دعو
من تدعون من دون الله.. انتهوا عن الالتجاء لغير الله.. توقفوا
عن الطلب من غير الله.. اجتنبوا الثقة بما في أيدي غير الله..

امتنعوا عن التوكل على غير الله.. كَفُّوا عن سؤال غير الله،
ضعف الطالب والمطلوب.

النمل

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾ [النمل].

الْبَيْتُ هو المكان الذي يعتاد الإنسان أن يبيت فيه ويقضي الليل نام أم لم ينم، يشترط فيه أن يكون لأشخاص محدودين (عائلة) لا يشاركونهم فيه أحد، قد لا يكون مبنياً، كخيمة أو كهف، أو قد يكون غرفة في دار أو مأوى أو نزل.. أما المسكن فلا يشترط فيه أن يكون من بيوت في المكان مرتبط بالآخرين، مثل مساكن الطلاب أو مساكن العمال، فكل بيت مسكن ولكن ليس كل مسكن بيت.. أما الدار.. فيشترط فيها أن تكون مبنية، ويشار بها إلى الأرض والبناء معاً بخلاف البيت والمسكن الذي يشار فيه

إلى الفراغ الذي يشغله الساكن، والدار قد يكون فيها بيت يسكن، أو أكثر من بيت، حيث أن كل غرفة نوم تعتبر بيتًا لأن أحدًا ما يبيت فيها، مثل دار المسنين، وقد لا تكون للسكن إطلاقًا، مثل دار القضاء أو دار الإفتاء أو دار الطباعة والنشر.. وبالالتفات إلى هذي الفروق اللغوية الدقيقة، نجد ملائمة لفظة "مساكنكم" التي تطلق على الأماكن التي يعيش فيها النمل كجماعاتٍ متنوعة منظمة.. والآن.. ترى أين يبني النمل مساكنه؟ أبعيدًا عن المسارب والطرق؟ أم في أي مكانٍ؟ إنه يبنيه بطريقةٍ هندسيةٍ تحميه من التصدع والانحيار فوق رؤوس أصحابه، مهما بلغت الجيوش الحرارة التي قد تمرّ فوقه، وذلك على شكل أنفاق دائرية المقطع توزع الأحمال الثقيلة على جانبي النفق.. وإلى ساكني هذه المساكن المحمية بإبداعٍ غريزيٍّ نمضي في سباحةٍ خاصةٍ لنشهد في خصائص مجتمعتها العجب.. النمل من أرقى الحشرات الاجتماعية، فانضباطها يكاد لا يصدق، واختصاصات أفرادها على مثال الكمال المطلوب لحياتها، تعيش في جماعات يتفاوت عدد أفرادها بين بضع عشرات وعشرات

الملايين، وأمة النمل هي أكثر الأمم الحية عددًا وأوسعها انتشارًا، يعرف منها اليوم أكثر من ثمانية عشر ألف نوع، تنتشر في جميع مناطق الأرض، ما عدا المناطق القطبية، بعضها يحيا حياة مستقرة في مساكن محكمة، وبعضها يحيا حياة الترحال كالبدو تمامًا، بعضها يكسب قوته بجهد وسعيه، وبعضها يكسبه بالغدر والسيطرة، ولكونها حشرة ذات طبع اجتماعي، فهي إذا عزلت عن أخواتها ماتت، ولو توفرت لها كل مقومات الحياة من غذاء ومكان وظروف وهي بذلك تشبه الإنسان الذي يختل توازنه إذا عزلته في مكان بعيد عن الضوء والصوت والساعة والزمن والليل والنهار، مدة عشرين يوماً.

أودع الله في جهازها الهضمي جهاز ضخ وجهاز مص، فإن كانت شبعى وأختها جائعة تستخدم جهاز الضخ، وتعطيها من عصارتها الهضمية.

للنمل ملكة كبيرة الحجم، مهمتها وضع البيض، وإعطاء التوجيهات، ولها مكان أمين في مساكن النمل، وهي على اتصال دائم بكل أفراد المملكة، أما الإناث العاملات فلها

مهمات متنوعة، منها تربية الصغار، وهذا يشبه قطاع التعليم، ومنها تنظيف المساكن والممرات، وهذا يشبه قطاع البلديات، ومنها سحب جثث الموتى من المساكن ودفنها في الأرض، وهذا يشبه مكاتب دفن الموتى، ومنها جلب الغذاء من خارج المملكة، وهذا يشبه قطاع المستوردين، ومنها زرع الفطريات، وهذا يشبه قطاع الزراعة، ومنها تربية حشرات تعيش النمل على رحيقها، وهذا يشبه قطاع تربية المواشي..

في النمل عساكر لها حجم أكبر، ورأس صلب، كأن عليه خوذة، وهذا يشبه قطاع الجيش في حراسة المملكة، والأمن، ورد العدوان.

يبني النمل المدن، ويشق الطرقات، ويحفر الأنفاق، ويخزن الطعام في مخازن وصوامع، وبعض أنواع النمل يقيم الحدائق، ويزرع النباتات، وبعض أنواع النمل يقيم حروباً على قبائل أخرى، فيأخذ الأسرى من ضعاف النمل المخزون.

للنملة مخ صغير وخلايا عصبية وأعصاب لتقدير المعلومات، وخرائط كي تهتدي بها إلى مواقع الغذاء ومساكنها، وإن النملة

تملك نوعاً من التصرف العقلاني، وهي من أذكى الحشرات، وهي ترى بموجات ضوئية لا يراها الإنسان.

وهي تلعب دوراً رئيسياً في عملية الاتزان البيئي للأرض إذ تقضي سنوياً على بلايين الحشرات التي لو تركت لدمّرت الكساء الخضري والنمل بحفره المستمر في الأرض يقوم بتهوية التربة وتسميدها وتعقيمها وتطهيرها من العديد من الآفات كما يقوم بحركته وسط النباتات بدور تلقيح بعض الزهور ونشر عدد من البذور عبر مساحات متباعدة من الأرض.

أصبحت لغات التخاطب ووسائل اتصال الحيوان علماً من العلوم المستحدثة، تنطوي تحت ما يعرف باسم علم سلوك الحيوان، ولكن لم يستطع العلم بكل تقنياته الراهنة والمتطورة أن يستشف من لغات النمل إلا بعض الظواهر والحركات والأصوات المصاحبة للكلام، وقد صنّفها إلى أنواع عدة، أولاً : اللغة الكيميائية، وتتمثل في إفراز عدد من المركّبات الكيميائية الطيارة من جسم النملة لتعبّر بكل مركّبٍ منها على معنى محدد، مثل إصدار الأوامر والتعليمات والتوجيهات والتحذيرات وغير ذلك

من عمليات الاتصال وتبادل المعلومات والرسائل للإرشاد إلى بعض الأمور من مثل مواقع الغذاء، أو للإنذار في حالة الأخطار، وقد ثبت أن هذه الإفرازات الكيميائية تختلف في أنواع النمل المختلفة وتعرف عند علماء الحشرات باسم الإفرازات الدالة على الأثر، أو إفرازات الإنذار، ثانيًا : اللغة الحركية، وتتم بواسطة تحريك كل من الأرجل والبطن والملامسة بواسطة قرون الاستشعار وقد رُصدت هذه الحركات بدقةٍ شديدةٍ في محاولة لإيجاد تفسيرٍ لها، ثالثًا : اللغة الصوتية، ولم يفهم منها علماء السلوك الحيواني سوى ذبذبات صوتية متردة كالصرير تلتقطها خلايا سمعية في أرجل النمل، وفي بحث آخر قرأته عن النمل أن النملة إذا أوشكت أن تموت ترسل لأخواتها إشارة أن تعالوا فادفوني، فجاء عالم من علماء النمل فأخذ هذه الرائحة ووضعها على نملة صحيحة قوية متينة، فجاءت النملات ودفنوها مع أنها تحيا حياة طيبة، وترزق لكنها دُفنت، فهكذا جاء النص وهكذا نُقِّد الأمر.

وفي الآيات السابقة نجد أن النملة كانت في مدى سمع وبصر النبي سليمان عليه السلام، فسمع قولها تحذّر جماعات النمل من الهلاك تحت أقدام الجيش الحرّار، وتبسّم ضاحكًا منه.. وقام على الفور بشكر النعمة.. أدرك على الفور قيمة النعمة التي حباه الله بها، من إدراك وفهم منطق الطير ولغة النمل وتسبيح الجبال.

وهنا سأل النبي الله أن يعينه على تمام الشكر، وعلى حسن الأداء، وعلى العمل الصالح الذي يرضاه..
سأله بتذلل العبد المقصر أن يتمّ عليه فضله المبين، وأن يتقبله برحمته في زمرة العباد الصالحين..
أما نحن فمقصرون..

مقصرون إلى حدّ فظيع.. ومهملون إلى درجةٍ سافرة..
تنكّبنا عن عبادة الشكر وأهملناها.. فكم من نعمٍ نتقلّب في ألوانها وأنواعها.. ولا نكاد نحس بها.. بل نتطلع إلى ما ينقصنا، ونجحد ما عندنا، وكم من قدرات وملكات ومواهب زوّدنا

الخالق بها، ووهبنا إياها لاستخدامها في إعمار الكون وتسخيره،
فعطّلناها وجمّدناها وأسرفنا في العبث واللغو والضياع.

الهدد

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لِأَعَدَّبْتَهُ عَدَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَبُّنَا لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ [النمل].

قصة الهدد.. قصة مميزة لطائر ذكي مؤمن..

هو طائر الهدهد الذي يمارس أدواره في الحياة على أحسن وجه
وأكمّله..

دوره الاستطلاعي في جيش سليمان..

دوره الإعلامي الذي ينقل الخبر والصورة بصدق وأمانة..

دوره الدعوي إلى الله بالتمييز بين من يسجد للشمس من دون
الله وبين من يسجد لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض
ويعلم ما نخفي وما نعلن..

دوره العلمي في معرفة مكامن الماء وإخبار سليمان عنها.. ودوره
أخيراً كسفير النبي سليمان إلى قوم سبأ ومليكتهم.. وهكذا يقوم
الهدهد بأدواره كاملة تامّة دون تعارض فيما بينها.. كما ينبغي..
فهل نتعلم منه أن نلتزم بأدوارنا في الحياة مهما تعددت
وتنوّعت.. دور البنوة، فحسن بر الوالدين.. دور الأخوة في الله،
فتحابّ وتبادل وتزاور وتنصح.. دور الوالدية، فنوازن في
التربية بين الحزم واللين.. دور العامل، فنتقن العمل ونجوّده
ونحسنه..

وأخيراً.. الدور الحقيقي لكل فرد منا على الإطلاق، ألا وهو دور
المرابطة على ثغر من ثغور الإسلام، فكلنا دون استثناء على ثغرٍ
ما.. فالله الله أن يؤتى الإسلام من قبلنا.

العنكبوت

﴿كمثل العنكبوت﴾

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

لفظة العنكبوت اسم للواحدة المؤنثة المفردة، والجمع عناكب وعنكبوتات وعنكيب، وفي تسمية السورة الكريمة بصياغة الإفراد (العنكبوت) إشارة إلى الحياة الفردية لهذه الدويبة، وذلك في مقابل كل من سورتي النحل والنمل والتي جاءت التسمية فيها بالجمع إشارة إلى الحياة الجماعية لتلك الحشرات.

وفي الآية إشارة واضحة إلى أن مهمة بناء بيت العنكب مهمة تضطلع بها الإناث التي تحمل في أجسادها غدد إفراز المادة الحريرية التي ينسج منها البيت، ولو اشترك الذكر في بعض الأوقات بالمساعدة في عمليات التشييد أو الترميم أو التوسعة إلا

أن العملية تبقى أنثوية محضة، ويصف القرآن بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت، وهو من الناحية المادية البحتة أضعف بيت على الإطلاق، فمجموعة الخيوط الحريرية التي تشكل نسيج البيت لا تقى حر الشمس ولا زمهرير البرد، ولا تقي مطرًا هاطلاً ولا رياحًا قويةً، ولا تحدث ظلاً كافياً، كما لا تبعد عن ساكنيه أخطار المهاجمين، أما نوعية خيوطه فتعدّ من أقوى المواد الموجودة على سطح الأرض، لأنها تتحمّل شدًّا يصل إلى ٤٢٠٠٠ كغ / سم^٢ مما يكسبه قابلية هائلة للمط ويعطيه القدرة على الإيقاع بالفريسة من الحشرات دون أن يتمزق، خاصة وأن العنكبوت تبني بيتها من ضفائر مجدولة تضم عددًا من هذه الخيوط، وهنا نشهد إعجاز بلاغة القرآن إذ قال أوهن البيوت ولم يقل أوهن الخيوط، أما البيت من الناحية المعنوية فهو أوهن بيت على الإطلاق لأنه بيتٌ محرومٌ من معاني المودة والرحمة فالأنثى تقضي على الذكر بمجرد إتمام عملية الإخصاب وذلك بقتله وافتراسه لأنها أكبر حجمًا وأكثر شراسة منه، وفي بعض الحالات تلتهم الأنثى صغارها دون رحمة، وفي حالة موت الأنثى قبيل فقس

البيض تخرج صغار العناكب وتجد نفسها داخل كيس البيض في مكان شديد الازدحام فيبدأ الأخوة الأشقاء بالقتال من أجل الطعام والمكان، حتى تنتهي المعركة ببقاء عدد قليل من العنكبكات.

إنه مثلٌ يضربه الله في محكم تنزيله لأولئك الذين يتخذون من دون الله أولياء، يوالونهم، ويركنون إليهم ويألفونهم ويمنحونهم المودة والولاء.

اللهم أنت وليي في الدنيا والآخرة، إليك أتوب فاغفر لي.

النعجة

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاخْتُمْنَا بِإِلْحَاقِ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤)﴾ [ص].

قصة أخرى من قصص الحكم والقضاء تتداخل فيها مصالح الناس فيما يملكون من متاع الحياة الدنيا..

كان النبي داود في محرابه يتعبّد وقد أمر ألا يدخل عليه أحد ذلك اليوم فلم يشعر إلا بشخصين قد تسوّروا عليه المحراب ليسألانه عن شأنهما بسبب خلافٍ دبّ بينهما.. وهل تنشأ

أغلب الخلافات بين الناس إلا على حدود الملكية على شيء ما
من مالٍ أو أرضٍ أو سلطة..

هما أخوان، امتلك أحدهما تسع وتسعون نعجة، بينما امتلك
الآخر نعجة واحدة.. تطاول المالك الأول صاحب النعاج
الكثيرة على حق أخيه في النعجة الوحيدة وغلبه على ضمها مع
مجموعة نعاجه..

اشتكى صاحب النعجة الوحيدة.. فاجتهد النبي داود عليه
السلام في القضاء بينهما وقد أدرك أنّ في هذه القضية اختبار له
في حسن القضاء وتحريّ العدل، وهذا ما يجب أن يحاوله كل
قاضٍ يحكم بين الناس من أجل الحكم بالحق وعدم إتباع هوى
النفس.

النسر

﴿وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ
وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

يُذكر النسر مع جملة من الآلهة، التي كانت تُعبد من دون الله، وُدّ، سُوَاع، يَغُوث، يعوق، إلى غيرها من أسماء سموها وابتدعوها، وقد ذكر ابن منظور أنّ "نسر" اسم لصنم قد عُرف بصيغته الآرامية "نشرًا" وبعض الوثائق السريانية إلهًا عربيًا، وتشير مصادر الإخباريين العرب إلى أنّ قبيلة مراد كانت تعبد نسرًا، كذلك آل ذي الكلاع من حمير، ولقد تمّ العثور على أقدم منحوتة لطائر النسر في العالم، على أرض سورية، تعود إلى الألف العاشر قبل الميلاد في عمليات التنقيب الأثري الذي تنفذه البعثة السورية الفرنسية المشتركة أمام باب المغارة في جبل البلعاس بحماة، ويأتي اكتشاف جبل بلعاس متقاطعاً مع اكتشاف لوحاتٍ لنسور في موقعي الجرف الأحمر والعبير على

الفرات، ترمز للغيمة الممطرة الراجعة، حيث بدأ رمز النسر بالظهور، كغيمة ساجحة في الفضاء..

وفي تأريخ الأديان تبين أن الشعوب التي كانت تعبد الشمس، كانت ترمز لها بأنواع متباينة من الطيور، كالنسر والباز والطاووس وغيرها..

كذلك كان رمز الرب السوري حَدَد : إله البرق والرعد والمطر النسر أو الشمس المجنحة، وكان يُصور واقفاً فوق ثور، وفي يده اليسرى البرق أو سنابل القمح مقترناً بالنسر رمز الكواكب التي اعتقد الإنسان العربي الأموري والعربي الآرامي السرياني السوري أنّها السبب بالندى والجفاف وأن النسر هو أقدر الطيور على الارتفاع والعلو نحوها.

في حصن سليمان في محافظة طرطوس معبد آرامي قديم كرّس لعبادة إله محلي آرامي (زيوس) رب السماء و الصواعق و المطر والخصب، اسمه منقوش باليونانية على أماكن مختلفة من المعبد (إله بيتو خيخي) أي (زيوس) وقد تمّ تجديد بنائه وتوسيعه في الربع الثالث من القرن الثاني الميلادي، ويعد من أحسن المعابد

صيانة بعد معبد (بل) في تدمر، ولحرم المعبد الكبير ٤ بوابات
بنيت بحجارة ضخمة، يعلو كل منها حجر مستطيل مزخرف
بأشكال للنسر والثور..

الوحوش

﴿وَإِذَا الْوَحُوشُ حَشِرَتْ﴾

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (١٤)﴾ [التكوير].

هي الأهوال التي تسبق يوم القيامة، يتطرق البيان الإلهي لصور أخرى متباينة الموارد.. المشهد هنا كامل غير منقوص.. الكون بما فيه من أجرام.. والأرض وما عليها من جمادات وأحياء، بشرًا كانوا أم حيوانات.. فمن تكوير الشمس وإظلامها.. إلى انصباب النجوم وتناثرها أو تساقطها وتغيّرها عن أماكنها.. إلى تسيير الجبال واقتلاعها.. إلى إهمال الناس لإبلهم التي جاوزت في

حملها الشهر العاشر وهي من أهم وأنفس أموالهم وفي حالها ذاك تكون أعلى ما عند صاحبها لأنها مرجوة الولد واللبن قريبة النفع، لكنها اليوم تمهل وتعطل، لا يهتم بشأنها أحدٌ وتغدو بلا قيمة تترجى.. إلى اجتماع الوحوش واختلاطها في خوفٍ كبيرٍ مما يحدث في باطن الأرض وعلى سطحها، قد نسيت فرائسها وهامت على وجوهها، يحشرها الهول والرعب.. إلى اشتعال البحار وتأججها نارًا مسجورة.. إلى التقاء الناس ووقوعهم على أشكالهم مع من يناسبهم..... إلى آخر العلامات، من جحيمٍ يسعر.. وصحفٍ تنشر.

أهوالٌ تجمع كل المخلوقات في صعيد واحد، وليومٍ واحد هو يوم الحساب، فيه يحشر كل شيء حتى الذباب.. وتحشر الوحوش حتى يقتص من بعضها لبعض، فيقتص للجماة من القرناء، ثم يقال لها موتي فتموت.

وتتوالى الصور جميعًا لتعلن النبأ الأخير الأخطر، وهو أن النفس يوم ذاك، تعلم ما أحضرت، ما كسبت واكتسبت، ما قدّمت لآخرتها من عملٍ وسلوك.. هناك.. في ذلك اليوم، نعلم علم

اليقين ما كنا نعمل في دنيانا.. واليوم.. وبهذا الذي أخبرنا به
القرآن العظيم، نجد في الأمر فسحة متاحة وفرصة حقيقية كي
نعمل من أجله.

الفراش

﴿كالفراش المبتوث﴾

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْتُوثِ﴾ [القارعة: ٤].

إن ربط صورة الناس يوم البعث والحشر بصورة الفراش المبتوث لآية معجزة من آيات الله العظيم.. فما الفراش.. وكيف ومتى يشبهه الناس؟ الفراش حشرات جميلة.. زاهية الألوان.. حرشفية الأجنحة.. ضعيفة التكوين.. تبدأ دورة حياتها - كما اكتشفها العلم خلال القرنين الماضيين - بالبيض المنخصب الذي تضعه الأنثى فوق نباتٍ مناسبٍ ليرقاتها التي تفقس بعد حوالي خمسة أيام لتخرج منه يرقاتٌ على هيئة دود صغير جدًا.. تبدأ هذه اليرقات فورًا بالتهام الطعام بفكوكها القوية وبشراهة ملحوظة فينمو حجمها بسرعة ما يضطرها إلى الانسلاخ عن جلودها عدة مرات.. بعد ذلك تتشرق اليرقات فيما يشبه الكفن أو القبر، فتربط نفسها برباطٍ من حرير إلى النبات الذي تتغذى

عليه.. وفي هذه المرحلة يعاد خلق الحشرة بأكملها، فتذاب اليرقة ذوباناً كاملاً ثم يكون بعثها بعد أسبوعين إلى ثلاث أسابيع على هيئة الحشرة الكاملة.. وبعد تمام تخلق العذراء تستعدّ للخروج من شرنقتها تماماً كما يستعدّ الميت للخروج من قبره لحظة بعثه.. وهكذا تخرج عذارى الفراش بالملايين من شرنقاتها ضعيفة هزيلة زاحفة ببطء في اضطرابٍ وحيرة، كما سيخرج البشر بمئات البلايين في لحظة البعث من قبورهم في ذهولٍ واستغرابٍ واضطرابٍ وحيرة..

عندما ترى الحشرة نور العالم الخارجي، تبدأ بضخّ الدم في أجنحتها المهيضة، بالتدريج حتى تنفرد، ولتجفيف جسمها المبلل بسوائل مرحلة العذراء فإنها تقف قليلاً في الشمس حتى تدفأ.. ولتصبح مستعدة للطيران، ولتكرار دورة حياتها من جديد.. هذا التصوير البديع يرافق لحظة النشور من الأحداث.

الفيل

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ
كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣)
تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ
(٥)﴾ [الفيل].

الفيل.. أضخم الحيوانات البرية وآخرها ذكرًا في كتاب الله ..
ومن منا لا يعرف قصة أصحاب الفيل؟!
أولئك الذين عزموا على هدم الكعبة.. بيت الله الحرام.. كانوا قد
اصطحبوا في جيشهم العرمرم فيلاً عظيماً ضخماً الجثة، وعند
أبواب مكة برك الفيل ولم يعد يتحرك، ضربه ليقوم فأبى..
وجهدوا في جعله يقتحم مكة ليدمر الكعبة ولم يفلحوا.. ولكنهم
حين وجهوه نحو اليمن أو نحو الشام أو نحو المشرق قام يهرول..
ثم أراد الله أن يهلك هذا الجيش وقائده أبرهة، فأرسل عليهم
جماعاتٍ أبابيل من الطير ترميهم بالطين والحجر السجيل
فتبيدهم وتهلكهم جميعاً.. والطير الأبابيل جموع من فرقٍ كثيرةٍ

ضمّت جماعاتٍ كبيرةً من الطير يحمل كل واحد منها ثلاثة أحجار أمثال الحمص والعدس، واحدة بمنقارها واثنين برجليها، وكان رميها لا يخطئ المرمى فلا تصيب أحدًا إلا أهلكته، لتصير حال هؤلاء المعتدين بعد موتهم كورق زرع سقط على الأرض ووقع فيه الدود، أو كما قال كثير من المفسرين : أنهم كتبوا أكلته الدواب ثم رآته متفرقًا ليشبه القرآن تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث لما فيه من تشويه حالهم.

قصة أصحاب الفيل.. ترجمة لحادثة تاريخية حدثت فعلاً على مشارف مكة عام ٥٧١م، ولعلي أجد أن أبطالها الفعليين من الحيوانات كانوا جنوداً من جنود الله يجرّكها كيف شاء.. مطيعة لأمره، مستسلمة لمشيئته، تهاجم أعداءه وتمسك عن إيذاء مقدساته.

جدول المحتويات

٥	الإهداء
٧	من البعوضة.. إلى الفيل.. وما بينهما
١٣	تنويه لأبد منه
١٥	ألفاظاً وتعابير من بيئة الحيوان
٢٩	البعوضة
٣٣	العجل
٤٤	المنّ والسلوى
٤٧	القرود.. الخنزير
٥٦	البقرة
٦٤	الدابة
٨٠	الحمار
٨٨	الطير
١١٣	الخيال
١٢٥	البغال
١٢٦	الأنعام

- الإبل _____ ١٥٤
- الغراب _____ ١٥٨
- لا تقتلوا الصيد _____ ١٦١
- الناقة _____ ١٦٩
- التعبان .. الحية _____ ١٧٢
- الجراد والقمل والضفادع _____ ١٧٨
- الحوت _____ ١٨٢
- الكلب _____ ١٩١
- الذئب _____ ١٩٥
- البعير _____ ١٩٨
- النحل _____ ٢٠٠
- الغنم _____ ٢٠٣
- الذباب _____ ٢٠٥
- النمل _____ ٢٠٩
- الهدهد _____ ٢١٧
- العنكبوت _____ ٢٢٠

٢٢٣ _____ النعجة

٢٢٥ _____ النسر

٢٢٨ _____ الوحوش

٢٣١ _____ الفراش

٢٣٣ _____ الفيل

المؤلفة في سطور

يمان عبد الحميد ياسرجي - مهندسة معمارية - صدر لها :

- عقد الياسمين / مجموعة قصصية /
- فسيفساء في خزينة الذات / وجدانيات وقصائد /
- لغز المحال / وجدانيات وقصائد /
- كن رائع الجمال / مقالات قصصية /
- جحا يزور التليتبز / مسرحية للأطفال /
- كانوا أطفالاً مثلكم / قصص للناشئة /
- بصمات / مقالات قصصية /
- المفكرون الصغار / مسرحية للأطفال /
- حكايات للجيل القادم / قصص للناشئة /
- قلم يكتب الحب / مقالات قصصية /
- أيام الفتى عربي / مسرحية للأطفال /
- أناشيد الفتى عربي / أناشيد للأطفال /
- أبوح ولا أبوح / وجدانيات وقصائد /
- في حضرة الوطن / وجدانيات وقصائد /
- كمثال حبة / تأملات فكرية /
- حروب على تخوم الروح / تأملات فكرية /
- إيقاعات ملونة / قصص ومقولات قصيرة جداً /
- سياحة خاصة مع الحيوان في القرآن /